حضرة المحترم

القاهرة ٣٠

١

حضرة المحترم

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للآداب ١٩٨٨

١

انفتح الباب فتراءات الحجرة مترامية لا نهائية . تراءت دنيا من المعانى والمثيرات لا مكانا محدودا منطويا فى شتى التفاصيل . آمن بأنها تلتهم القادمين وتذيبهم . لذلك اشتعل وجدانه وغرق فى انبهار سحرى . فقد أول ما فقده تركيزه . نسى ما تاقت النفس لرؤيته ، الأرض والجدران والسقف . حتى الإله القابع وراء المكتب الفخم . وتلقى صدمة كهربائية موحية خلاقة غرست فى صميم قلبه حبا جنونيا ببهجة الحياة فى ذروتها الجليلة المتسلطة . عند ذاك دعاه نداء القوة للسجود ، وحرضه على الفداء ، ولكنه سلك مع الآخرين سلوك التقوى والابتهال والطاعة والأمان . كالوليد عليه أن يذرف الدمع الغزير قبل أن يملى إرادته وتلبية لإغراء لا يقاوم خطف نظرة من الإله القابع وراء المكتب ثم خفض البصر متحليا بكل ما يملك من خشوع .

وكان حمزة السويفى مدير الردارة يتقدم الموكب الصغير فقال مخاطبا المدير العام :

ـ هؤلاء هم الموظفون الجدد يا صاحب السعادة . .

مر ضوء عينيه على الوجوه، وعلى وجهه ضمنا، فجال بخاطره أنه دخل تاريخ الحكومة، وأنه يحظى بالمثول فى الحضرة. وخيل إليه أنه يسمع همهمة من نوع عجيب، لعله يسمعها وحده، ولعله صوت القدر نفسه. ولما استوفت الفراسه امتحانها الوئيد تكلم صاحب السعادة. تكلم بصوت بطىء وهادئ ومنخفض فلم يكشف عن شىء يذكر من جوهره. قال متسائلا:

- جميعهم من حملة البكالوريا؟

فأجاب حمزة السويفى:

- بينهم اثنان من حملة التجارة المتوسطة.

فقال صاحب السعادة بنبرة مشجعة:

- العالم يتقدم، كل شىء يتغيرها هى البكالوريا تحل محل الابتدائية.

اطمأنت القلوب ودارت فرحتها بمزيد من الخشوع، فقال الرجل:

- حققوا المأمول منكم بالاجتهاد والاستقامة.

وراح يراجع بيانا بالأسماء حتى سأل عن غير توقع:

- من منكم عثمان بيومى؟

دق قلبه دقة قوية جدا. وقع نطق الرجل لاسمه من نفسه موقعا مؤثرا عنيفا. تقدم خطوة مطرقا وهمس: أنا يا صاحبالسعادة!

- ترتيبك ممتاز فى البكالوريا فلم لم تكمل تعليمك؟

صمت. اضطرب. لم يدر فى الواقع ماذا يقول بالرغم من حضور الجواب فى وعيه طيلة الوقت. وعنه أجاب مدير الإدارة كالمعتذر:

- لعلها ظروف يا صاحب السعادة!

سمع الهمهمة مرة أخرى، سمع صوت القدر. ولأول مرة شعر بأن ثمة زرقة تخضب الجو، وأن رائحة طيبة غريبة تجول فى المكان. ولم يحزنه أن يشار إلى «ظروفه» المعوقة بعد أن تقدس شخصه بعطف صاحب السعادة وتقديره. وقال لنفسه إنه يستطيع أن يحارب جيشا بمفرده فينتصر عليه. والحق أنه ارتفع وارتفع حتى غاص رأسه فى السحاب، وثمل لدرجة العربدة الوحشية. أما صاحب السعادة فنقر على حافة المكتب وقال مؤذنا بالختام:

- شكرا، ومع السلامة..

وهو يغادر المكان قرأ في سره آية الكرسى.

٢

إنى أشتعل يا ربى.

النار ترعى روحه من جذورها حتى هامتها المحلقة فى الأحلام.

وقد تراءت له الدنيا من خلال نظرة ملهمة واحدة، كمجموعة من نور باهر، فاحتواها بقلبه وشد عليه بجنون. كان دائما يحلم ويرغب ويريد ولكنه فى هذه المرة اشتعل، وعلى ضوء النار المقدسة لمح معنى الحياة. أما على الأرض فقد تقرر إلحاقه بالمحفوظات. لم يهمه كيف يبدأ فالحياة بدأت من خلية واحدة بل من دون ذلك. وهبط إلى مقره الجديد وجناحاه يرفرفان، يشق طريقه إلى بدروم الوزارة. طالعته قتامة، ورائحة أوراق قديمة، ورأى سطح الأرض فى الخارج عند مستوى رأسه من خلال نافذة مصفحة. وامتد البهو أمامه. تتلاصق على جانبيه دواليب شنن، وصف طويل منها يشقه شقا طوليا. على حين استقرت مكاتب الموظفين فى ثغرات بين الدواليب. ومضى وراء موظف إلى مكتب يستعرض تجويفا كالمحراب فى الصدر جلس إليه رئيس المجفوظات. لم يكن أفاق من تفثة السحر المقدسة، حتى الغوص فى البدروم لم يوقظه. سار وراء الموظف بتشتته وذهوله وانفعالاته وهو يقول لنفسه: اللا نهاية هى ما ينشد الإنسان.

وقدمه الموظف إلى الرئيس :

ـ عثمان أفندى بيومى الموظف الجديد .

ثم قدم الرئيس إليه قائلا :

ـ رئيسنا سعفان أفندى بسيونى . .

رأى فى الوجه قرابة طبيعية كأنما كان فى الأصل من مواليد حارته . وأحب عظام وجهه البارزة وجلده الغامق المشدود وشعر رأسه الأبيض المشعث ، وأحب أكثر نظرة عينيه الأليفة الطيبة النزاعة لعكس معنى الرياسة بلا جدوى . ابتسم الرجل كاشفا عن أقبح ما فيه ، أسنان سود مثرمة ، وقال :

ـ أهلا بموظفنا الجديد ، اجلس . .

وراح يقلب فى صور أوراق تعيينه ثم قال :

ـ أهلا . . أهلا . . الحياة يمكن تلخيصها فى كلمتين ، استقبال وتوديع . .

وقال عثمان فى نفسه ولكنها رغم ذلك لا نهائية . وهفت عليه ريح خفيفة مجهولة مليئة بجميه الاحتمالات فقال إنها لا نهائية ولكنها فى حاجة إلى إرادة لا نهائية كذلك . وأشار الرئيس إلى مكتب خال متآكل الجلدة منجرد اللون ملطخ ببقع حبر باهت وقال :

ـ مكتبك ، تفحص الكرسى بعناية فإن أحقر مسمار قد يهتك بدلة جديدة . .

فقال عثمان :

ـ بدلتى قديمة جدا والحمد لله . .

فواصل الرجل تحذيره :

ـ واقرأ الصمدية عندما تفتح دولابا من دواليب شنن فقبل العيد الماضى طلع علينا من أحد الدواليب ثعبان لا يقل طوله عن متر . .

وضحك حتى سعل ثم استدرك :

ـ ولكنه لم يكن من نوع سام . .

فتساءل عثمان بقلق :

ـ وكيف نفرق بين السام والغير سام؟

ـ عندك فراش المحفوظات فهو أصلا من أبو رواش وهى بلدة الثعابين . .

وتناسى ذلك واعتده مزاحا . وراح يلوم نفسه كيف فاته أن يرى بكل عناية حجرة صاحب السعادة المدير العام ، كيف فاته أن يملأ عينيه من وجهه وشخصه ، كيف لم يحاول أن يقف على سر السحر الذى يخضع به الجميع فيجعلهم طوع إشارة منه . هذه هي القوة المعبودة وهى الجمال أيضا . هى سر من أسرار

الكون، على الأرض تطرح أسرار إلهية لا حصر لها لمن له عين وبصيرة. إن الزمن قصير بين الاستقبال والتوديع ولكنه لا نهائى أيضا. الويل للذى ينسى هذه الحقيقة. ثمة أناس لا يتحركون مثل سعفان أفندى بسيونى. الرجل الطيب التعس. إنه يترنم بحكمة لم يتعلم منها شيئا. كذلك كان أبوه عم بيومى. ليس كذلك من مست النار المقدسة قلوبهم. هناك طريق سعيدة تبدأ من الدرجة الثامنة وتنتهى متألقة عند صاحب السعادة المدير العام. هذا هو المثل الأعلى المتاح لأبناء الشعب ولا مطمح لهم وراء ذلك. تلك هى سدرة المنتهى حيث تتجلى الرحمة الإلهية والكبرياء البشرى. ثامنة... سابعة... سادسة.... خامسة... رابعة... ثالثة... ثانية... أولى... مدير عام. معجزتها تتحقق فى اثنين وثلاثين عاما، وربما تحققت فى أكثر من ذلك. أما الساقطون فى وسط الطريق فلا حصر لهم. إن النظام الفلكى لا يطبق على البشر وبخاصة الموظفين منهم.. والزمن يستكن بين يديه كطفل وديع ولكن لا يمكن التنبؤ بغده. إنه يشتعل، هذا كل ما هنالك. ويخيل إليه أن النار المتقدة فى صدره هى التى تضىء النجوم فى أفلاكها. نحن أسرار لا يطلع علي خباياها إلا خالقها.

وقال له سعفان أفندى بسيوني:

- ستدرب أولا على الوارد فهو أسهل..

ثم وهو يضحك:

ـ على كـاتب المحـفـوظات أن يخلع جاكـتتـه وهو يعـمل أو أن يحيك لكوعه كمامة من القماش تقيه شر الغبار والاكلبسات .

كل ذلك يسـيـر ، أمـا العـسـيـر حـقـا فـهـو كـيـف نتـعـامل مع الزمن . . .

٣

فى مسكنه ـ حجرة وحيدة ومرافق ـ يرى نفسه ، يتجسد له معنى حياته . إنه يعيش مفتح الحواس مرهف الوعى ليتزود بكل سلاح . ومن نافـذته الصـغـيـرة يرى وطنه ـ حـارة الحـسينى ـ كـأنهـا امتـداد لروحه وجسده . حـارة طويلة ذات منحنى حاد ، مشهـورة بموقف للكارو ومسقى للحمير . البيت الذى ولد ونشأ فيه تهدم . وقامت مـوضـعـه بـاحـة صغـيرة لعربـات اليد . قليل من مـواليد الحـارة من يبرحـهـا بصفـة نـهـائية إلا للقـبـر . يعـملون فى مـواقع كـثـيـرة ، فى المبـيـضـة . . الدراسـة . . السكة الجـديدة . . أو فـيـمـا وراء ذلك ، ولكنهم يرجعون إليها آخر النهـار . ومن خـواصـهـا الحـمـيمـة أنها لا تعـرف الـهـمس أو النجـوى ، أصـواتهـا مـرتفـعـة جدا ، متـوترة بين الحكمة والبدائية ، ومن بينها صوت قريب قوى خشن لم يخلخله الكبـر ، صـوت أم حـسنى صـاحـبـة البـيت . إن أحـلام الأبدية جد مرهقة ، ولكن ماذا كان بالأمس ، وماذا يكون اليوم؟ . خليق بمثله ألا يعـرف المسـتـحيل . وخليق به ألا يتـرك نفسـه للتيـار بلا خطة . وخطة محكمة . كثيرا ما يحلم أنه يبول ولكنه يستيقظ فى اللحظة

المناسبة، فما معنى ذلك؟ . أم حسنى كانت صديقة لأمة وزميلة ومرشدة، صديقة عمر طويل . كانت كلتاهما زوجة لسواق كارو، وعاملة كادحة، تكد بصبر النمل ودأبه سعيا وراء القرش، تسند به زوجها وترم عشها . دلالة . . ماشطة . . خاطبة، وغير ذلك . ماتت أمه وهى تعمل، أما أم حسنى فما زالت تعمل بهمة عالية . وكانت أم حسنى أحسن حظا وأوفر رزقا فتجمع لديها من المال ما بنت به بيتها به بيتها المكون من ثلاثة أدوار، مخزن أخشاب أرضى، وشقتين، تقيم هى فى إحداهما وعثمان فى الأخرى . وابنها حسنى لم يخلف وراءه إلا اسمه أم شخصه فقد حملته أيام الحروب والمحن إلى بلاد نائية فاستقر فيها .

ألا يحق له أن يحلم؟ . إنه يحلم بفضل الشعلة المقدسة التى تتقد فى صدره، وبفضل حجرته الصغيرة يحلم أيضا . وألف أحلامه كما يألف الفراش والكنبة والسحارة والحصيرة، وكما ألف الأصوات الحادة والمنغومة التى تند عن حنجرته فتردد أصداءها الجدران الراسخة القاتمة .

ماذا كان بالأمس؟ . أراد أبوه أن يجعل منه سواق كارو مثله ولكن شيخ الكتاب قال له :

ـ يا عم بيومى توكل على الله وأدخل الولد المدرسة الابتدائية . . فذهل الرجل وتساءل :

ـ ألم يحفظ من القرآن ما يقيم به الصلاة؟

فقال الشيخ :

ـ الولد ذكى وعاقل وربما رأيته يوما من رجال الحكومة . .

وقهقه عم بيومى غير مصدق فقال الشيخ :

ـ عليك بمدارس الأوقاف فربما قبل بالمجان . وتردد عم بيومى زمنا ثم تمت المعجزة . ونجح عثمان فى المدرسة نجاحا مذهلا حتى حصل على الابتدائية . تميز عن أقرانه الحفاة من أبناء الحارة ورأى بعينيه الحادتين أول شرارة مقدسة تنطلق من فؤاده النابض وأيقن أن الله يبارك خطاه ويفتح له أبواب اللانهاية . والتحق بالمدرسة الثانوية بالمجان كذلك فحقق من النجاح ما لم يصدقه أحد فى حارة الحسينى . ومرض عم بيومى مرض الوفاة وابنه فى السنة الثانية ، فندم ارجل على ما «فعله» بابنه وقال له :

ـ ها أنا أتركك تلميذا لا حول ه ، فمن يسوق الكارو ، ومن يحفظ البيت؟

وفاضت روح الرجل وهو حزين . وضاعفت الأم نشاطها مؤملة أن يجعل الله من ابنها كبيرا من الأكابر ، أليس الله بقادر على كل شىء؟! ولولا وفاة الأم بغير توقع لأكمل عثمان تعليمه فى المدارس العليا . وقد اشتدت لذلك حسرته ، وضاعف من حدتها اكتمال وعيه بطموحه وبأحلامه المقدسة . ومقدسة عنده أيضا ذكرى والديه . وكل موسم يزور قبرهما . وهو من قبور الصدقة الضائع بين القبور فى العراء . وهو اليوم وحيد ، مقطوع

من شجرة. قتل أخوه الأكبر ـ كان شرطيا ـ فى مظاهرة، وماتت أخته بالتيفود فى مستشفى الحميات. وأخ آخر مات فى السجن. إنه يتذكر أسرته فيشقى بالتذكر ويرثى لوالديه، ويقرن تلك الأحداث بدراما عليا يتطلع إليها باحترام ووجل فالمصائر تتقرر فى الحارة بفضل الإرادات المتصارعة والقوى المجهولة ثم تتقدس فى الأبدية. لذلك فهو يؤمن بنفسه بلا حدود ولكنه يعتمد فى النهاية على الله ذى الجلال. ولذلك أيضا فلا تفوته فريضة وبخاصة صلاة الجمعة فى جامع الحسين. وكإيمان أهل حارته لم يكن يفرق بين الدين والدنيا، فالدين للدنيا والدنيا للدين، وجوهرة متألقة مثل درجة المدير العام ما هى إلا مقام مقدس فى الطريق الإلهى اللانهائى. ولما كان يعيش بين زملائه بوعى يقظ لماح فقد التقط ما يهمه من المعانى والكلمات، ثم عكف على دراسة خطة دقيقة للمستقبل، ترجمها فى ورقة عمل ليذاكرها كل صباح قبل انطلاقه إلى العمل:

شعار للعمل والحياة

١ ـ القيام بالواجب بدقة وأمانة.

٢ ـ دراسة اللائحة المالية التى يشار إليها كأنها كتاب مقدس.

٣ ـ الدرس للحصول على شهادة عليا ضمن الطلبة الذين يعملون من منازلهم.

٤ ـ دراسة خاصة لغتين الإنجليزية والفرنسية بالإضافة إلى العربية .

٥ ـ التزود بالثقافة العامة وبخاصة الثقافة المفيدة للموظف .

٦ ـ الإعلان بكل وسيلة مهذبة عن تديني وخلقي واجتهادى فى عملى .

٧ ـ العمل على كسب ثقة الرؤساء ومحبتهم .

٨ ـ الاستفادة من الفرص المفيدة مع الاحتفاظ بالكرامة مثل مساعدة أدبية تقدم لذى شأن، صداقة مفيدة، زواج موفق من شأنه تمهيد الطريق للتقدم .

ولم يكن من النادر أن ينظر فى مرآة صغيرة معلقة بمسمار بين الافذة والمشجب ليتفحص منظره، وليطمئن على نفسه من هذه الناحية، لن يكون منظره عائقا فى سبيله على أى حال، فهو قوى الجسم كأبناء حارته، ووجهه أسمر طويل ذو جبهة عالية مشرقة وشعر حليق، وبصفة عامة سيجد فى جسمه الصلاحية لملء أى مركز مهما جل شأنه .

وقال لنفسه مستمدا من طواياها القوة والتشجيع :

ـ بداية لا بأس بها، وطريق بلا نهاية . .

٤

ساعة اللقاء عند أعتاب الخلاء مقدسة أيضًا، وهو يهرع إليها بقلب مشغوف، وبمرح من يتخفف من حمل الأيام بثقلها العتيد. هناك عند مشارف الصحراء يقوم السبيل الأثرى المهجور، على أدنى سلمه يجلسان جنبا إلى جنب فى أحضان الأصيل اللا متناهية، تترامى الصحراء أمامهما حتى سفح الجبل، ويغنى الصمت بلغته المجهولة. سمرتها الغامقة تشبه لون المساء المتحفز، سمرة موروثة عن أم مصرية وأب نوبى توفى وهى فى السادسة. زمالتهما القديمة فى الحارة تمتد أصولها فى الماضى البعيد حتى تتلاشى فى منبع الحياة نفسه. عندما ينظر فى عينيها النجلاوين الواسعتين أو يرى جسمها الصغير المدمج الفائر بالحيوية فإنه يتلقى المثال المثير لفطرته الذى يبعث فى غرائزه اليقظة والابتهال. إنها قرينة طفولته فى الحارة وفوق السطح، وزميلته فى الكتاب، وبالرغم من أنها لم تتجاوز السادسة عشرة فهى معدودة ست بيت ماهرة، وهى يد أمها الوحيدة بعد أن تزوجت أخواتها السبع. ابتسمت سيدة. وجهها بسام دائما، وعينها مشعة، وأطرافها تتناوبها حركة رشيقة دائمة ومتوترة، وخصلات شعرها المموج الخشن ترقص فى تيار النسيم الجاف الهابط من الجبل. ومرفت من الصمت المعذب قائلة:

ـ فرحت أمى بدخولك الحكومة..

سألها فى دعابة:

ـ وأنت؟

فتمادت فى ابتسامتها ولم تجب. أحاطها بذراعه ولثم بشفتيه الحادتين شفتيها المليئتين. لم يجر للحب ذكر بينهما ولكنهما يعربان عنه فى كل خلوة بالأحضان والقبل. وهى تشبع من نفسه جانبها المنهوم بالحياة فى بساطتها ومسراتها، ويحبها بعقله أيضا لأنه يقدر مزاياها وإخلاصها، ويشعر بتلقائية بأنها كفيلة بإسعاده.

ـ أصبحت موظفا..

وشى صوتها بالإعجاب فقبلها مرة ثانية.

ـ لم يحظ أحد فى حارتنا بذلك..

جميع أقرانه يعملون فى شتى الحرف. يرمقونه ـ إذا مر ـ بالإعجاب وأحيانا بالحسد. ما أجدره بأن يسر لولا شعوره الحاد القاسى بطول الطريق وعناده.

ـ أنت الأفندى الوحيد!

فقال بهدوء:

ـ لا قيمة لذلك خارج حارتنا.

ـ الخارج لا يهم، أما حارتنا فهى حارة الكارو!

ـ فقبلها لمرة الثالثة وقال:

ـ لا تتكلمى عن الكارو إلا بالاحترام . .

ـ صدقت، أنت شهم . .

وقد قبض على أبيها فى المعركة التى قبض فيها على أخيه فدخل السجن ومات فيه بسببها، ولكن تلك الأحداث تعد من الأمجاد التى يطيب بها ذكر الحارة. ولكن سيدة تدور حول نقطة واحدة لغرض واضح. ولا جدوى من تجاهله فها هى تسأل:

ـ وماذا بعد ذلك؟

إنه يدرك لهفتها على كلمة يطيب بها الفؤاد ويسعد. ويعلم أيضًا أن سعادته لن تقل عن سعادتها بحال إن لم تزد. إنه يحب هذه الفتاة كما تحبه ولا غنى له عنها. ولكنه يخاف. عليه أن يفكر ألف مرة. وليراجع ورقة العمل المريرة. ليتمل الحياة التى تقف أمامه مرحبة ومتحدية معا.

ـ ماذا تعنين يا سيدة؟ . .

فأجابت معاندة فى خفة:

ـ لا شىء!

ـ لا يجوز أن ننسى أننا صغيران . .

ـ أنا؟!

قالتها باحتجاج عذب أشارت به إشارة مليحة إلى أنوثتها الصارخة.

فقال مداعبا:

- إنما قصدت نفسى..

- أطلق شاربك فهذا ما ينقصك.

أخذ مزاحها مأخذ الجد وفكر بأن ذلك قد ينفعه حقا فى نضاله فمنذا الذى يتصور موظفا كبيرا بلا شارب؟!

قال بهدوء:

- سأكمل تعليمى يا سيدة.

- هل ما زال ينقصك تعليم؟

- الشهادة العليا.

- لماذا؟

- مساعد لا بأس به للترقى.

- وهل يلزمك وقت طويل؟

- أربعة أعوام على الأقل.

قرأ بتألم خفى الفتور فى عينيها وربما الخجل وشيئا من الغضب!

- وما ضرورة الترقى؟

ضحك. لثم شعرها. لم يجرؤ على تجاوز ذلك. ذكرته رائحة شعرها بملاعب الطفولة والصبا، وبلكمة أصابت ظهره عندما ضبطا وهما يلعبان العريس والعروس. لاحت ظلمات الليل فوق الجبل وترامى غناء من فونوغراف.

ـ الظاهر أن الترقى مهم أكثر مما تصورت..

فتناول يدها بين يديه وغمغم:

ـ أحبك، إلى الأبد..

نطق صدقا. وبقدر صدقه اغتم وتألم وسخط على نفسه، وقال إن تجربة الحياة عظيمة جليلة ولكنها مرهقة.

٥

وقف على قبر والديه الضائع بين قبور لا حصر لها وقرأ الفاتحة، ثم قال:

ـ يرحمكما الله رحمة واسعة..

ثم ناجاهما بامتنان قائلا:

ـ عثمان موظف محترم يخطو خطواته الأولى فى طريق عسير ولكنه مصمم على السير حتى النهاية.

ثم انحنى قليلا وقال بابتهال:

ـ كل ما نلت من خير فبفضل الله وفضلكما . .

وتلا غلام ضرير بعضا من السور الصغيرة فنقده نصف قرش، ورغم تفاهة المبلغ لم يخل من الضيق الذى يركبه عند الدفع . ولما ذهب الغلام عاد إلى مخاطبة والدية قائلا :

ـ عهد الله أن أنقلكما إلى قبر جديد إذا حقق الله آمالى . .

ولم يكن لديه فكرة عما يبقى من الجثث فى مجرى الزمن ولكنه تخيل أن يبقى شىء على أى حال . وتذكر وهو يعجب لذلك سيدة فوضحت صورتها الباسمة أمام عينيه، وخيل إليه أنها تتحفز لإطلاق ملاحظة حادة وصريحة وساخرة . انقبض قلبه وتوجع وهمس :

ـ اللهم اهدنى سواء السبيل فكل ما أفعل من وحيك .

وعاش من جديد الأيام الأخيرة لأبيه . هذا أمر لا مفر منه . كان المرض والكبر قد أقعداه فكانت نزهته أن يفترش فروة أمام البيت، لا يكاد يرى أو يسمع، يتأمل عجزه . يتأوه هاتفا :

ـ اللهم لطفك ورحمتك . .

كان فى زمانه من رجال الحارة الأشداء . عاش حياة طويلة معتمدا على عضلات ذراعيه وساقيه، يعمل بلا انقطاع ويعانى على المدى شظف العيش والفقر . قوة مهدرة تتغذى على لا شىء ويقهقه فى الملمات بلا معنى ولا سبب . ووجد ذات مساء ميتا

حيث يجلس على الفروة فلم يدر أحد كيفحضره الموت ولا كيف تلقاه هو . أما أمه فكانت ميتتها أدعى للدهشة . كانت تغسل فانطوت على نفسها حتى تقوست وراحت تصرخ من شدة الألم . وجاءت الإسعاف فحملتها إلى قصر العينى وتقرر إجراء جراحة فى الأعور قتلت فى أثنائها .

أسرته ضحية فريدة للموت . شىء قال له فى باطنه إنه ربما بسبب ذلك سيعمر هو طويلا . واجتاحته موجة من الأسى . كل موت معقول بالقياس إلى موت أخيه الشرطى . رجل كالجمل يقتل بطوب الثوار . أى ميته . لا يعرفهم ولا يعرفونه . إنه يقف من تلك الأحداث موقف المتفرج المتعجب . لا يفقه لها معنى على الإطلاق أجل عرف الكثير من مطالعة التاريخ . عرف التاريخ من أقدم العصور حتى قبيل الحرب العظمى . عرف الثورات . ولكنه لم يعشها ولم يستجب لها . وقد رأى وسمع ولكنه انعزل وتعجب . لم يحظ بعاطفة عامة واحدة تشده إلى الميدان . ما أعجب اقتتال رجال الدولة الكبار وأتباعهم . لقد عاش حياته مطاردا بالفقر والجوع فلم يدع له ذلك وقتا لمد آفاق تفكيره إلى الخارج . انحصر فى الحارة يهمومها المجهولة من الجميع ، الوحشية ، القاسية ، المتلاحقة . واليوم يعرف لنفسه هدفا دنيويا وإلهيا فى آن لا علاقة له فى تصوره بالأحداث العجيبة التى تجرى باسم السياسة . قال إن حياة الإنسان الحقيقية هى حياته الخاصة التى ينبض بها قلبه فى كل لحظة ، التى تستأديه

الجهد والإخلاص والإبداع . إنها مقدسة ودينية . بها تتحقق ذاته في خدمة الجهاز المقدس المسمى بالحكومة أو الدولة . بها يتحقق جلال الإنسان على الأرض فتتحقق به كلمة الله العليا . إنهم يهتفون بغير ذلك أو بما يناقض ذلك ولكنهم مجانين مزيفون . ولذلك فرنه لم يغفر لنفسه أه لم يملأ عينيه من حجرة المدير العام، ولا من شخصه المتفرد الذى يحرك الإدارة كلها من وراء برافان . فى نظام دقيق وتتابع كامل يذكر الغافل بالنظام الفلكى وبحكمة السماوات .

تنهد بعمق .

قرأ الفاتحة مرة أخرى . قال مودعا :

- ادع لى ربك يا أبى .

ودار حول القبر الذى سقط شاهداه وتشقق ركنه ثم قال :

- ادعى لى ربك يا أمى .

٦

ما أعجب الفصول فى تعاقبها . إنه يعايشها من خلال عمله المتواصل . الشتاء فى الحارة فصل شديد القسوة ولكنه يحفز للعمل، الربيع بخماسينه لعنة، الصيف جحيم، الخريف بسمة غامضة متألمة . إنه يواصل العمل بإرادة صلبة وشهوة نارية . ها

هى كتب القانون تصطف تحت الفراش وفوق منصة النافذة. لا ينام من الليل إلا أقله. يعانق الأفكار ويصارع الغموض، وحتى النجاح لا يريد أن يقنع به وحده. ويوم الجمعة يخصص عادة للثقافة العامة الجديرة بالمديرين ومن فى خدمتهم. واهتم بالشعر خاصة، حفظ الكثير، بل حاول نظمة نظمه ولكنه فشل. قال إن الشعر كان وما زال خير وسيلة للتقرب من الكبراء، والتألق فى الحفلات الرسمية. إنه لخسران فادح أن يفشل فى نظمه. ولكنه على أى حال خير طريق لأتقان النثر والخطابة لا تقل عن الشعر فى النجاح المنشود. والأسلوب الجزل مطلوب، قلبه يحدثه بذلك. واللغات الأجنبية مثله وأكثر. جميع تلك المعارف مفيدة، ولها وقتها الذى ترتفع فيه قيمتها فى بورصة المضاربات الديوانية، فليس بالتعليمات المالية وحدها يحيا الموظف. أجل عليه أن يتزود من ل شىء نافع بطرف فمن يعلم؟ وكان يقول إن حياته تيار غير منقطع ماض فى مجرى النور والعرفان، يتكاثف بكل طريف، ويتشعب فى مجالات الفكر، تدفعه حرارة الإيمان والكبرياء البشرى الشريف، ليصب فى النهاية فى الأعتاب الإلهية.

أما راحة النفس فيحظى بها على سلم السبيل ازثرى. فى عناق الحب المشبوب. بين يدى الفتاة الجميلة المحبة. فى حضنها العذرى المشتعل. بلا تورط فى فعل أو قول. لكنه يتعلق به تعلقه بالحياة نفسها. آه لو كانت الحياة تقنع بالحب والسعادة اليسيرة.

ومن شدة قلق سيدة تجاوزت تحفظها الفطرى. تمادت فى الإفصاح عن عواطفها الصادقة. كشفت عن لهفتها المحمومة. قالت له مرة بورع:

- لا حياة لى بدونك.

ولكن بدا قولها فاترا بالقياس إلى ما تمنحه شفتاها المليئتان. وقالت له مرة أيضا:

- أنت كل شىء، ما مضى وا هو آت..

وعيناها العسليتان تبعثان ألقا ناطقا بالوفاء والجزع والأشواق الصادقة. وفى غمار العناق الذائب فى الأنفاس المحترقة قالت متنهدة:

- ينقصنا شىء..

فقال ببلادة وأنانية:

- حبنا الكامل لا ينقصه شىء!

فرفعت منكبيها حتجة ولكن بحذر من يرغب عن إحراجه ويستعين عليه بالصبر والإصرار، ووجد أنه يعانى كبتا مرعبا سيرمى به مرة تحت رحمة المجهول. لذلك أذعن لإغراء زميل دعاه إل زيارة لدرب البغاء الرسمى. وكابن من أبناء حارة الحسينى لم تعوزه الجرأة الكافية، انطلق فى الدرب الذى يضيئه مصباحان غازيان متباعدان يغلفهما الغبار الراسخ فيغرق جنباته

فى شبه ظلام مثير للشهوات. وقلب عينيه القلقتين حتى استقر على صيد. ويعقب ذلك عادة إكباب على طلب الغفران، وعكوف طويل عى الصلاة والعبادة. وهو ما يفعله عادة كلما واجه نواياه العميقة الخفية من ناحية سيدة. فالى جانب عناء العمل المتواصل وجد عناء أشد من عذابات ضميره. وكان يختم لياليه الطويلة المرهقة فى إعياء نفسى شديد، كالإغماء، وأحيانا تبتل جفونه وهو لا يكاد يدرى.

وكان سعفان بسيونى رئيس المحفوظات يتابع نشاطه الرسمى بإعجاب وحذر. أعجب بجلده وحسن ترفه وخلقه، ولم يرتح من بادىء الأمر إلى البكالوريا التى تميز بها وحده فى المحفوظات ولا إلى طموحه إلى المزيد من التعلم الذى سيرفعه درجات جديدة من الامتياز عليه هو بشهادته اليتيمة «الابتدائية». وفطن عثمان إلى ذلك فى حينه ولكنه طمع فى طيبته الفطرية وضاعف من تودده إليه وإذعانه لتوجيهاته حتى اطمأن الرجل إليه تماما وفتح له قلبه فى صفاء نادر. وفى أوقات الفراغ قربه إليه، وأفضى إليه بخواطره، حتى السياسة صرحه فيها برأيه وأهوائه. ولشدة حماس الرجل جفل عثمان من الإعراض عن اهتماماته أو مالنته بحياده البارد إزاءها، وقال بغموض وحذر:

ـ الحق أننا من مشرب واحد، ولا عجب فى ذلك..

فسر الكهل بقوله سرورا عظيما ذهل له عثمان. عجيب

استغراق الرجل فى هذه الشئون . وأعجب منه استغراق زملائه التعساء فيها . ماذا يشدهم إليها؟ . أليس لديهم هموم صميمية تشغلهم عنها؟ .

ولكنه قال لنفسه بازدراء غير قليل إنهم أناس لا يعرفون لأنفسهم هدفا محددا، وإيمانهم الدينى إيمان سطحى، ولم يفكروا بما فيه الكفاية فى معنى الحياة، ولا فيما خلقهم الله من أجله، وهكذا تتبدد أفكارهم وأعمارهم فى لهو وسفسطة، وتهدر قواهم الحقيقية بلا عمل . تستغفلهم الأوهام، ويمضى الزمن وهم لا يعلمون . .

٧

وقال له سعفان بسيونى بعد أن تلق منه بريد الوارد

- إنى أدعوك إلى سهرة ممتعة فى بيتى . .

دهش وانزعج ولكنه لم يفكر فى التملص . قال الرجل :

- يوجد حفل زفاف فى بيت الجيران، سنتعشى معا لحمة رأس، ونجلس فى الشرفة نستمع للغناء . .

كان الرجل يقيم فى شقة بالدور الثالث ببيت بعطفة البحر بباب الشعرية . وتبين له أنه كان المدعو لوحيد . طاب نفسا بالمكانة التى يؤثره بها رئيسه، وتناول معه عشاء لذيذا مكونا من المخ والجبهة

واللسان والجوهرة وممبار وفتة بالتقلية غير الفجل والمخلل، وحلوى من الشمام، أكله ممتازة ووفيرة وقد أكل حتى امتلأ. وجلسا فى شرفة تطل على فناء البيت الذى قام فيه الفرح. تبدى الفناء غارقا فى الأنوار تصب عليه من كلوبات كثيرة. وصفت به الأرائل والكراسى التى اكتظت بالمدعوين، واكتظت المماشى بالغلمان والأطفال، وأحدق عشرات وعشرات منهم بسور الفناء من الخارج. وشعت الأنوار فى البيت من الداخل أيضا وتراءت النساءوهن يذهبن ويجئن. وهدر المكان بالأصوات من جميع الدرجات والأنواع، وارتفع الضحك والسعال والزغاريد. خفق قلب عثمان وهو يرنو إلى جو الفرح وانتقلت إلى فؤاده حرارته الفواحة بعطر الجنس والحب. لذلك تلقى دغدغات التخت بتأثر أشد مما ألف. فهو لا يعشق الغناء ولكن إذا جاءه بلا كلفة فلا بأس به ولو إلى حين قليل. حسن، الموسيقى لا بأس بها أحيانا، شىء طيب ومريح. الزواج علاقة باهرة وفرح ودين. وخالجة شعور شامل بالأسى.

ـ لعلك فى حاجة إلى الترفيه، هذا ما أقوله لنفسى كثيرا. . قال سعفان ذلك وهو ينظر ناحيته بوجه تضىء أنوار الفرح أجزاء منه وتتوارى أجزاء فى الظلال. وقال أيضا:

ـ عمرك يجرى فى العمل والدراسة ولكن الحياة تطالبنا بأشياء كثيرة. .

أصغى إليه باهتمام فى الظاهر واستخفاف فى الباطن. إنه

يحتقر المواعظ التى تحث على الكسل ويعتدها تجديفا بذى الجلال، غير أنه تذكر سيدة فى عذابها الطويل، وما عله أن ينجزه ويحفظه ويراجعه، وشعر بأنه يبتسم ابتسامة لا معنى لها. وعاد سعفان يقول:

ـ لك همة عالية ولكن راحة الباب جوهرة ثمينة أيضا . .

فقال له واستخفافه به يتصاعد:

ـ أنت رجل حكيم يا سعفان أفندى . .

وظهر فى مدخل الشرفة شبح، فتاة تحمل صينية تفوح منها رائحة الشاى المنعنع. انعكس الضوء الصاعد من الفرح على وجهها فوضحت بعض معالمه رغم ظلام الغرفة القابع وراءها، وجه مستدير، لونه قمحى، وثمة ملاحة ملحوظة مغلفة بغموض وأشواق. ساوره قلق. وهو يميل قليلا ليتناول قدح الشاى رأى عن قرب ساعدها السوية البضة وكأنها هى التى تنفث رائحة النعناع. وقفت دقيقة أو أقل ثم توارت فى الظلام وهى تدارى ابتسامة كادت تفلت منها حياء وارتباكا. وساد صمت كأنه الشعور بالإثم، وتشبع الجو بروح المؤامرة، وتضاعف قلقه. قال سعفان:

ـ ابنتى . .

هز رأسه إعرابا عن الاحترام . .

ـ حصلت على الابتدائية قبل أن تنقطع عن المدرسة . .

واصل هز رأسه فى تقدير وإعجاب. ترامت إليهما أصوات الجوقة وهى تغنى التواشيح. ومضى سعفان قائلا:

- البيت هو المدرسة الحقيقية للبنت..

لم يعلق، لم يجد ما يقوله، وضق فى الوقت نفسه بصمته.

- ما رأيك فى ذلك؟

- أوافقك كل الموافقة..

ولكنه تذكر جهاد أمه الكادح فى حياتها المريرة. شعر بأنه يدفع إلى مصيدة. بدأ الغناء بصوت الطرب هادئا وخافتا وناعما. وتمتم سعفان:

- ما أجمل الصوت!.

- نعم.

- الحياة جميلة أيضا.

- بلا شك.

- ولكنها تطالبنا بالحكمة لتجود علينا بحلاوتها..

- أليست الحكمة ثمرة عسيرة؟

- كلا، هى هبة من لله سبحانه.

قال لنفسه إن الله لم يخلقنا للراحة ولا للطريق القصيرة. الرجل يحاصره وهو لن يستسلم، ولكن كيف يفوز بحريته

ورضى رئيسه معا؟! . لم يعد يسمع من الغناء شيئا . سعفان يتابع الغناء بأذنه ويده وقدمه وينظر إليه بين ذلك متفحصا مستطلعا . وحنق عليه كجلاد ماكر . ورأى أن عليه أن يرد الدعوة بأحسن منها دفاعا عن نفسه المهددة . آلمه ذلك ألما غير هين . إنه لا ينفق القرش بغير ضرورة ملحة . وفتح حسابا فى دفتر توفير البريد مع أول مرتب قبضه . ولذلك لم يخطر له على بال أن يغير مسكنه أو حارته أو طعامه . وهو يؤمن بأن الادخار وسيلة هامة من وسائل جهاده الطويل وشعيرة من شعائر دينه ، وأمان ضد الخوف فى عالم مخيف . ولكن لا بد مما ليس منه بد . سيرد الدعوة بأحسن منها . وسيتم ذلك فى مطعم لا فى حجرته المكتظة بالكتب ، الفقيرة فى كل شىء عدا ذلك . وإذن فسوف ينفق مبلغا جسيما حقا . اللعنة على الحمقى . بات الغناء ضجيجا لا معنى له وتفتحت أبواب الجحيم . والكهل يهز رأسه طربا غير عالم بجريمته . والدنيا تطلق سخرية من سخرياتها .

٨

وقبل مضى الشهر دعا الرجل للعشاء فى مطعم الكاشف . تناولا سمكا شهيا وحليا بمهلبية . وكان الكهل من السعادة فى غاية وخيل إليه أنه يتوقع نزول ملاك السعادة والرحمة . ولم يقنع بالعشاء فيما يبدو فاقترح قائلا :

ـ ما رأيك فى سهرة فى الفيشاوى؟

وجب قلبه بألم عميق ولكنه تأبط ذراعه قائلا :

ـ يا لها من فكرة رائعة!

وجلسا فى المقهى وهو يتذكر عيدا من أعياد الفطر تمزق فيه جلبابه الجديد فى معركة بحارة الحسينى، ضربه أبوه، واضطر إلى استعمال الجلباب عاما كاملا بعد أن رقعته أمه. وأزعجه سرور الكهل وانشراحه. إنه يتوقع أن يسمع خبرا سارا بلا شك. وها هى فرحة قلقة فى أعماق عينيه الشاحبتين، وها هو يجود بالرضى على كل شىء.. قال :

ـ أأنت سعيد بزملائك فى المحفوظات؟..

ـ أعتقد ذلك.

ـ إنهم تعساء ولكنهم طيبون..

ـ إنهم طيبون حقا..

ـ أما أنت فشاب ممتاز، هل تعمل محاميا إذا انتهيت من دراستك؟

ـ كلا، لكنى أرجو تحسين حالتى.

ـ فكرة طيبة. يعجبنى طموحك الشريف!

وخرج عثمان من تردده مصمما على النجاة ولو بخنق آمال الرجل. قال :

ـ إ هموم ى أكبر مما تتصور . .

فرمقه الرجل متوجسا وسأله :

ـ لِم كفى الله الشر؟

ـ لا يهمنى الطموح كما تظن ، تهمنى أشياء أقل من ذلك بكثير . .

ـ حقا؟

ـ لولا الظروف القاسية لما فكرت إلا فى أمر بسيط وطبيعى ومعقول وهو أن أكمل نصف دينى!

لم يفلح الكهل فى مداراة الخيبة التى خنقته ، وتساءل :

ـ أى ظروف يا ترى؟

فتنهد عثمان فى أسى وقال :

ـ مسئوليات جسيمة ، نحن أبناء الفقر وهو يصر على مطاردتنا . . وأطرق وهو يقول بصوت كئيب :

ـ كم كنت أود . .

وسكت كأنما غلبه الانفعال . تراجع الكهل عن ضوء المصباح فمضى فى الظل . لا مفر من ذلك ولكن عليه أن يحافظ على صداقته ما وسعه الجهد والحيلة . وجاءه صوت الرجل من الظل :

ـ ومتى تستطيع الوقوف على قدميك؟

فأجاب بنبرة يائسة:

ـ فى عنقى صغار وأرامل، ما أنا إلا ثور معصوب العينين يدور فى ساقيه..

مات كل شىء. حتى مطارق قطع النرد لم تِعد تسمع. عاد يتمتم:

ـ كم كنت أود..

فلم يعلق الكهل بكلمة. وأراد أن يدفع الحساب ولكن عثمان أبى عليه ذلك ودفعه من جيبه وهو يتمزق. تلاشت البهجة من الجلسة ولم ينفع فى إحيائها الافتعال. وغادرا المقهى فمضيا مشيا على الأقدام حتى ميدان باب الشعرية، وهناك فارقه الرجل إلى مسكنه. وجد نفسه فى حال تعيسة من التوتر والقلق. ودهمته موجةمجنونة من الاستهتار فدعته إلى التبذير اليائس كأسلوب من الانتحار.

وقصد بلا تردد الدرب ليدفن فى أعماقه قلقه وأحزانه وعذابات ضميره. وقال لنفسه بحزن:

ـ حتى أخطاء الإنسان يجب أن تكون مقدسة..

٩

اعترضت أم حسنى طريقه وهو نازل. إنها لا تفعل ذلك بلا سبب. نظر إلى وجهها المخدد بالتجاعيد وشعرها المصبوغ بالحناء وجسمها القوى رغم شيخوختها فتذكر أمه، صافحها وهو يبتسم فقالت:

- عندى خبر..

- خير إن شاء الله.

فقالت وهى تضيق عينها الوحيدة - فقدت الأخرى فى معركة من معارك الحارة - قالت:

- لا خير فيه..

نظر إليها جادا فقالت:

- عريس، وجد عريس فى طريقك!

- هه؟

- عريس تقدم لسيدة..

اجتاحه حزن وذهول كأن ذلك لم يكن كتوقعا. لم يجد ما يقوله.

- ترزى بلدى..

كان يعلم بأن ذلك آت لا ريب فيه . لا يحاول دفعه ولا أمل له فى منعه . كالموت . ولم ينبس فسحبته من يده إلى حجرتها وأجلسته على الكنبة إلى جانبها ، وسألته :

ـ ألا يهمك الأمر ؟

شعر بألم حاد فى أعماق روحه . شعر بأن الدنيا تتلاشى . قال بغضب :

ـ لا تطرحى أسئلة لا معنى لها . .

ـ هدىء خاطرك . .

ـ يحسن بى أن أذهب .

ـ ولكنك لن تتمكن من لقائها .

الدنيا تتلاشى أكثر وأكثر . . قالت :

ـ كان يجب أن تدرك ذلك من نفسك .

ـ لِم ؟

ـ أمها تتشدد ف منعها من الخروج ، فرجل حقيقى خير من خيال . .

وتمتم بلا وعى :

ـ رجل حقيقى خير من خيال .

ـ أنت تحبها . أليس كذلك ؟

فقال بأسى :

ـ إنى أحبها .

ـ حكاية محفوظة فى حارتنا .

ـ وهى حقيقية .

ـ عظيم ، ولِم لم تتكلم؟

فقال بحدة :

ـ لا أستطيع .

ـ اسمع ، توسلت البنت إلّى أن أبلغك . .

تنهد فى يأس كامل . فقالت المرأة :

ـ اذهب من توك فاخطبها أو دعنى أتولى ذلك عنك .

حادث نفسه بأصوات مبهمة كأنما يتكلم لغة مجهولة حتى ذهلت المرأة فقال مواصلا حديثه مع نفسه :

ـ ولن يغفر الله لى . .

ـ أعوذ بالله ، أتراها غير أهل لموظف مثلك؟

ـ لا تتقولى علّى يا أم حسنى . .

ـ أطلعنى على قلبك ، أنا أمك . .

فقال متنهدا :

ـ لا أستطيع أن أتزوج الآن.

تنتظرك كما تشاء.

ـ سيطول الانتظار..

ـ اربطها بكلمة، هذا يكفى الآن..

ـ كلا، لست أنانيا، إنى أرفض حرصا على سعادتها.

وهمت بالاسترسال فى الحديث ولكنه غادر الحجرة. سار ببطء ف الحوار الضيقة. كان يتعذب بعمق ويسلم بمرارة بأنه لن يراها مرة أخرى. ورغم عذابه شعر بارتياح خفى يائس، وبقدر ارتياحه آمن بأن اللعنة حلت به. إنه يحبها ولن تملأ أخرى الفراغ الذى خلفته وراءها فى نفسه. وهذا الحب لن يمحى بسهولة، وسعلمه كيف يكره نفسه وطموحه، ولكنه سيصر على التعلق بهما بقوة الكراهية واليأس. إن ما يركبه جنون، ولكنه جنون مقدس يغلق باب السعادة باستهانة وكبرياء ويدفعه بقوة فى طريق المجد الشاق المحفوف بالأشواك. إن السعادة تغريه بالتفكير فى الانتحار أما الشقاء فهو الذى يحرضه على نشدان الحياة وعبادتها.

ولكن ياللخسارة ياسيدة!..

١٠

وتقـدم فى كل شىء ولكن عـذابه لم يكـد يخف، ورسـخت قدمه فى عمله حتى شهد له سعفان بسيونى - رغم إخفاقه معه - بالمواظبة والكفاءة والاستقامة، وكان يقول عنه:

- إنه أول الحاضرين وآخر الذاهبين وفى أوقات الصلاة يؤم المصلين بمصلى الوزارة . .

وهو يؤدى عمله، ويؤدى عن المتأخرين أعمالهم، فالكلام عن جدته لايقل عن الكلام عن قدرته. وسار فى دراسته بعزم قوى يبشر بنجاح باهر. وأصبح من مدمنى التردد على دار الكتب، يقرأ بنهم شتى الثقافات إلى جانب دراسته القانونية الشاقة. أصبح كذلك من الوجوه المعروفة التى ترى فى جامع الحسين فى صلاة الجمعة فعرف فى الحى - كما عرف فى الوزارة - بالتقوى ولورع. ولكن عذابه لم يكد يخف، وظلت سيدة مسيطرة تماما على خياله ووعيه حتى قال لنفسه:

- إنها الجوهرة الوحيدة فى حياتى . . .

وفى مواعيد اللقاء يجلس على سلم السبيل الأثرى فتلفحه حرارة الذكريات ويغوض فيها حتى تتجسد له حية ملموسة. فى لحظات اشتداد الوجد يتوقع أن يسمع وقع قدميها الخفيفتين ويرى طلعتها المقبلة محفوفة بالشوق والحياء. وحديثها الطويل وعناقهما

الحار وكل موضع ثمين غسله بقبلاته. ولكنها لا تأتى ولن تأتى. قطعته ولعلها نسيته. وإذا خطر ببالها لعنته بما يستحق. ويوما مر تحت نافذتها فى ساعة العصارى فخيل إليه أن رأسها لاح لحظة وراء القلة المعرضة للهواء لتبترد، ولكنها لم تكن هناك أو لعلها تراجعت باشمئزاز وعجلة. وقال لنفسه:

ـ مقدس الإنسان فى عذاباته..

وقال أيضا:

ـ لا يخلو عمل للإنسان من عبادة..

وصادفها صباح الجمعة فى الخيمية بصحبة أمها تلاقت عيناهما لحظة ثم حولتهما عنه فى غير مبالاة. لم تلتفت وراءها. تجلى له معنى من معانى الموت، كما خرج أبوه من الجنة بإرادته. وكما يخوض العذاب بشموخ وكبرياء.

وكان يختلف إلى الدرب بحذر وانفعال ويأس. ووثقت الأيام علاقته بفتاة تماثله فى السن تسمى نفسها قدرية. جذبته بسمرة غامقة ـ مثل سيدة ـ ولكنها أعمق فى زنجيتها وبدانتها ولم تكن مغرقة فى البدانة. ومنذ ساقته قدماه إليها ـ منذ زمن ليس بالقصير ـ لم ينحرف إلى سواها. وذكرته حجرتها بحجرته ولكنها أكثر بدائية بأرضها العارية وفراشها المرتفع والمرآة وكرسى وحيد يستعمل للجلوس وكمشجب، وطشت وإبريق. لذلك لم يكن

يستطيع خلع بدلته فى ليالى الشتاء . ومرت أعوام لم يبادلها سوى تحية القدوم وتحية الذهاب . ورغم تدينه العميق علمته الشراب ، القدر القليل الضرورى . وكان قدح النبيذ من نبيذ «السلسلة» الجهنمى - بنصف قرش - يكفى لطمس عقله وبعث الجنون فى دمه حتى قال لها مرة فى نشوة مضحكة :

- أنت سيدة الكون . .

وكان يتأمل الحجرة العارية ، ويشم رائحة البخور ، ويلمح الحشرات ، ويتخيل الجراثيم المستكنة ويتساءل أليس هذا الركن الملعون المشتعل بنار الجحيم جزاء من مملكة الله؟! . . ومرة أمطرت السماء وجعجع الرعد فانحبس فى الحجرة العاربة . خلا الدرب وخفتت الأصوات وساد الظلام . تربعت قدرية فوق الفراش وجلس هو فوق الكرسى الخيزران ، وأضاء الحجرة شمعة وحيدة . ولما طال الوقت تناول من جيبه مذكرة مدونا بها ملاحظات من دروسه وراح يقرأها - كعادته - بصوت مسموح . وسألته قدرية :

- قرآن؟

فهز رأسه بالنفى وهو يبتسم .

- مواعيد غرامية؟

- دروس!

ـ تلميذ؟! . . ولماذا تربى شاربك؟ . .

ـ موظف وتلميذ فى مدرسة ليلية . .

وتذكر سيدة بحنين وأسى . وخطرت له فكرة استراح لها وهى أن المطر المنهمر يغسل الدرب ويجلو وجهه .

وعاد ذات يوم إلى الحارة فرأى الأرض مفروشة بالرمل أمام بيت سيدة والرايات تخفق على الجانبين . دق قلبه دقة النهاية . والتقى بأم حسنى على السلم ـ ترى هل تعمدت أن تنتظره؟ ـ فحياها عابرا ومضى وصوتها يدعو له :

ـ ربنا يحقق مقاصد ويسعدك . .

لم يستطع أن يركز عقله فى دروسه . واقتحمت حجرته الصغيرة الأصوات ، الزغاريد ، تهليل الغلمان . موسيقى حسب الله ، أجل . . ها هى سيدة تدخل مملكة رجل آخر ، وتنطوى فترة من الشباب وتدفن .

* * *

غادر البيت بتصميم جديد . قال إن الحياة أعظم من جميع آمالها . وأن الخيام أجمل حكمة من المعرى . وأن القلب هو المرشد الوحيد . اقتحم الفرح حتى قالوا إنه مجنون . وأشار إلى سيدة وقال لها «إنى أدع لك الحكم» استجابت رغم

الصراخ والعويل لأنه فى اللحظات الحرجة التى تسبق الإعدام تتعرى الحقائق فتهزم الموت. ومضى بها مخترقا ثلاثة زقة مارقا من باب النصر إلى مدينة الأموات وهما يترنحان من السعادة.

* * *

لم تسكت الأصوات والزغاريد والأغانى حتى مطلع الفجر. وكان ينظر إلى الكلمات ولا يفقه لها معنى. شعر بالوحدة فتوغل فى عالم مجدب خال من الأصوات والأمل. وثقلت عليه المعاناة فى الطريق الشاق فتذكر معارك الأمم، ومعارك الجراثيم، ومعارك الصحة والعافية فهتف:

ـ سبحان الله العظيم!

١١

حضرة صاحب السعادة المدير العام:

أتشرف بإبلاغ سعادتكم بأننى حصلت على ليسانس الحقوق هذا العام ـ من منازلهم ـ اشتزادة من العلم واستكمالا للوسائل الضرورية للموظف، مستلهما الهمة من عبقرية سعادتكم، فى ظل مولانا الملك المعظم حفظه الله وأدام ملكه.

رجاء التكرم بالعلم والأمر بحفظ الشهادة المرافقة بملف خدمتى.

وتفضلوا يا صاحب السعادة بقبول فائق الاحترام،

عثمان بيومى

كاتب الواردات بالمحفوظات

لقد أحرز نجاحا باهرا بالقياس إلى زملائه المتقدمين من منازلهم. وسيدور خطابه الموجه إلى حضرة صاحب السعادة دورة رائعة تعلن تفوقه على الملأ، فهو يعرض أولا على رئيسه المباشر سعفان بسيونى ليوقع عليه بالعرض على صاحب العزة مدير الإدارة حمزة السويفى، فهو يسرك فى صادر المحفوظات ثم يسرك مرة أخرى فى وارد الإدارة. بعد ذلك يعرض على حمزة السويفى ليوقع بعرضه على حضرة صاحب السعادة المدير العام، فيسر فى صادر الإدارة ثم يسرك فى وارد مكتب المدير العام، ثم يقرأه حضرة صاحب السعادة المدير العام، يقرأ بعينيه ويتسلل إلى ذاكرته وربما هز عواطفه، ثم يوقع عليه بالتحويل إلى المستخدمين لإجراء اللازم، فيسرك فى صادر مكتب المدير العام ووارد المستخدمين حيث تتخذ الإجراءات ثم ترسل صورة إلى المحفوظات التى صدر منها الخطاب للحفظ فى ملف خدمته الإداري، بذلك تتم الدورة الفلكية ويعلم من لم يكن يعلم.

وثمل بالسعادة يوما. وتتابعت الأيام. ماذا بعد ذلك؟. هل يبتلع الصمت كل شيء؟. لا شيء يحدث. النار المقدسة مشتعلة فى صدره. ومقام الحسين يشهد مناجاته الطويلة. الطريق طويلة ولا خطوة واحدة تبشر بالضياء. وقد انتهى من الدراسة أما اغترافه من بحر الثقافة فلا يتوقف أبدا. إنه يشبع بها أشواقه إلى المعرفة ويكمل بها ذاته لتكون أهلا للمركز الذى سيشغله يوما بإذن الله وفضله، ويتسلح بها فى نضاله الطويل المرير فى الغابة الرسمية التى يطالب فيها كل ذى شأن بقرابينه. إنه لا يملك سحر المال، ولا يتمتع بامتيازات الأسر الكبيرة. ولا قوة حزبية تسنده، وليس من الذين يرتضون أن يلعبوا دور البهلوان أو العبد أو القواد، إنه واحد من أبناء الشعب التعيس الذى عليه أن يتزود بكل سلاح، ويتحين كل فرصة، ويتوكل على الله، ويستلهم حكمته الأبدية التى قضت على الإنسان بالسقوط فى الأرض ليرتفع بعرقه ودمه مرة أخرى إلى السماء.

ومن خلال تتابع الأيام فى مجراها الأبدى خلت درجة سابعة بالمحفوظات بنقل شاغلها إلى وزارة أخرى. وقال له سعفان بسيونى:

- رشحتك للدرجة الخالية فلا يوجد فى المحفوظات من هو أحمق بها منك..

فشد على يده بامتنان وهو يود أن يقبله فقال الكهل:

ـ سبعة أعوام مضت عليك فى الثامنة، وقد حصلت فى أثنائها على ليسانس الحقوق، وأثبت بجدارة كفاءة لا نظير لها . .

وضحك الكهل كاشفا عن أسنانه السود المثرمة وقال :

ـ وهى مضمونة لك إن شاء الله فلا رغبة لأهل الوساطات فى وظيفة بإدارة تسكنها الثعابين والحشرات . .

وطال الانتظار ومضت الأيام . وقال لنفسه ها هى سبعة أعوام تمر فى درجة واحدة فيلزمنى على هذا القياس أربعة وستين عاما حتى أبلغ الأمل المنشود . المدير العام الذى أشعل النار المقدسة فى قلبه . لم تقع عليه عيناه منذ بين يديه ضمن المستجدين . وإن متعة نفسه أن يقف فى جانب من الميدان يراقب موكبه وهو يغادر الوزارة فى أبهة الملك وقدسيته . هذا هو غاية الحياة ومعناها وجلالها .

واستفحل العمل فى الإدارة أيام إعداد الميزانية فاحتاج مدير الإدارة إلى موظفين إضافيين من الأقسام التابعة له فندب عثمان للعمل عن المحفوظات . سر بذلك وقال إنها فرصته . وثوبت للعمل بهمة هائلة، عمل مع المراجعين كما عمل مع وكيلى الإدارة، وشهد اجتماعات مع مدير الإدارة نفسه . انفجر كبركان وكأنما كان ينتظر هذه الفرصة مذ اشتعل قلبه بالطموح المقدس . ولم يتردد فوضع نفسه تحت تصرف السادة الرؤساء من مطلع الصباح حتى منتصف الليل . فى الظروف الدقيقة الحرجة ينسى

كل شيد فى الحكومة إلا الكفاءة الحقة . والميزانية عمل خطير يتصل بالمدير العا ووكيل الوزارة والوزير ومجلس الوزارة والبرلمان والصحافة ، فلا مجال فى أيامها المشحونة بالإرهاق لصاحب امتياز ، ولكن يفرض الانتخاب الطبيعى نفسه ويتقدم الأكفاء ويعترف بالقيمة الذاتية حتى ولو لم يقدر لها حسن الجزاء . وقد لفت عثمان إليه الانتباه وحاز الثقة الكاملة ، وتجلت قدرته الخارقة على العمل ، كما تجلت دراسته باللوائح والقانون . ولم يقنع بما أحرز من نجاح فتطوع سرا لكتابة مشروع بيان الميزانية الذى يكتبه عادة مدير الإدارة بنفسه . وهيأ له العمل فرصة الانفراد بمدير الإدارة حمزة السويفى فلما فرغ من عرض أوراقه قال له بأدبه الجم :

ـ سيدى المدير ، اسمح لى أن أقدم لكم بعض الملاحظات التى قيدتها أثناء العمل لعلها تنفع عند النظر فى تحرير بيان الميزانية !

فنظر إليه حمزة السويفى باستخفاف مشوب بالعطف وقال :

ـ أنت شاب ممتاز كما يقال عنك . .

ـ أستغفر الله يا فندم .

ـ على فكرة مبارك فقد تمت اليوم الموافقة على ترقيتك إلى السابعة . .

تمتع عثمان بلحظة انتصار سعيدة فقال بامتنان :

ـ بفضل الله وفضلكم !

فقال مدير الإدارة مبتسما :

ـ مبارك ، أما بيان الميزانية فشىء آخر !

فقال باستماتة :

ـ عظم الله قدرك ، لا جرأة لى على الاقتراب من بيان الميزانية ، ولكن عنت لى ملاحظات فى أثناء العمل ، ملاحظات مجتهد درس القانون والمالية ، فطمع أن تكون فى الخدمة عندما تحتشدون لوضع البيان الخطير .

وتناول الرجل «الملاحظات» وراح يقرأها والآخر يتابعه باهتمام مركز خيالى . لقد سيطرت عليه الملاحظات ، هذا واضح . ثم قال بهدوء سطحى :

ـ أسلوبك جيد . .

ـ شكرا يا سيدى . .

ـ يخيل إلىّ أنك قارئ ممتاز .

ـ أعتقد ذلك يا سيدى .

ـ ماذا تقرأ؟

ـ الأدب ، سير العظماء ، الإنجليزية والفرنسية . .

ـ هل لك قدرة على الترجمة؟

ـ إنى أمضى أوقات فراغى فى مطالعة القواميس .

فضحك حمزة السويفى وقال :

ـ شىء جميل ، وفقك الله . .

وأذن له فى الانصراف ولكنه استبقى «الملاحظات» عنده . وغادر عثمان حجرته ثملا بالأفراح ، يؤمن بأنه نال من ثقته ما هو أثمن من الدرجة السابعة نفسها .

وعندما طبع مشروع الميزانية بعد ذلك بأشهر هرع عثمان إلى مقدمة الميزانية فقرأ البيان الذى كتبه بخط يده عدا تغيير طفيف لا يقدم ولا يؤخر . سعد بذلك سعادة كبيرة ، امتلأ ثقة بنفسه وبمستقبله ، واستوصى بذكائه فلم يفش سر البيان لأحد .

وما لبث أن صدر قرار بنقله من المحفوظات إلى إدارة الميزانية . ليلتها وقف وراء نافذة حجرته ينظر إلى الحارة الغارقة فى الظلام . ورفع عينيه إلى السماء فرأى النجوم الساهرة . مستقرة فيما يبدو ولكن لا شىء جامد فى الكون . وقال إن الله خلق النجوم الجميلة ليحضرنا على النظر إلى أعلى . وأن المأساة أنها ستطل يوما من عليائها فلا تجد لنا من أثر . ولا يتحقق معنى لوجودنا إلا بالعرق والدم .

١٢

قال له سعفان بسيونى :

ـ سأحزن لغيابك عن المحفوظات بقدر ما أنا سعيد بك .

وذاب عثمان فى الجو العاطفى بإخلاص وقتى فدمعت عيناه وتمتم :

ـ لن أنساك أبدا يا سعفان أفندى ولن أنسى عهد المحفوظات .

ـ ولكنى سعيد لأنك سعيد . .

فتنهد عثمان وقال :

ـ السعادة عمرها قصير جدا يا سعفان أفندى .

ولم يفهم سعفان قوله ولكن الآخر كان يعيشه . كان يحمل الزمن على ظهره لحظة ويعانى الصبر نقطة نقطة . وسرعان مانسى تماما أنه رقى إلى السابعة أو أنه يعمل فى إدارة الميزانية ، كان يعمل بجنون فى الوزارة ، ويتبحر فى المعرفة فى حجرته الصغيرة . وبين هذا وذاك يقول بجزع :

ـ العمر يجرى . . الشباب يجرى . . الأيام لا تريد أن تستريح . . وما زال فى أول الطريق الطويل . وكان ولعه بالادخار يزداد مع الأيام ، واستمساكه بمسكنه البدائى يقوى ويشتد . المال حصن ، هكذا يشعر . وهو مهر عند الضرورة لعروس الأحلام .

وعروس الأحلام هى التى تفتح مغالق الأبواب وتستنزل جوهرة المستقبل من معتصمها . وللموظفين فى ذلك أقوال مأثورة وحكم وأمثال .

العروس الجميلة إما أن تكون هدية مجد مبكر أو ذريعة إلى المجد المستعصى . والطريق يبدو شاقا وطويلا فهو فى حاجة إلى إسعاف . وهم يقولون :

ـ سعادة المدر العام ارتقى إلى مركزه الفريد وهو شاب تقريبا بفضل السياسة والأسرة فتزوج من فتاة من أسرة تعد من ملكات الجمال .

ويقولوم أيضا :

ـ أما الوكيل الأول للإدارة فترقى بفضل زوجته ، أو أسرة زوجته وهو الأصح . .

وهو يزود نفسه بكل سلاح فلا عيب إذا استعان بعد ذلك بعروس كريمة ، وإلا فكيف يقف ضد تيار الزمن المتدفق بلا رحمة؟! . ولذلك راح يترجم للصحف والمجلات ليزيد من دخله ويزيد بالتالى من مدخراته . ونجح فى ذلك نجاحا لا بأس به . ولم ينفق مليما جديدا للتخفيف من تقشفه . ولم يعرف من عالم اللهو إلا زيارته الأسبوعية لقدرية فى الدرب وشرب قدح النبيذ الجهنمى بنصف قرش . قالت له مرة :

ـ أنت لا تغير هذه البدلة أبدا، هى هى صيفا وشتاء، أعرفها من سنوات كما أعرفك . .

فقطب ولم يعلق فقالت:

ـ لا تغضب، أنا أحب الضحك . .

فسألها بسذاجة:

ـ هل جمعت ما أعطيتك من نقود طيلة السنين الماضية؟

فقالت ساخرة:

ـ عشقت رجلا مرة فسرق منى مائتى جنيه، هل تعرف معنى مائتى جنيه؟

تخيل المصيبة فاستعاذ بالله وقال لنفسه إن كوارث الدنيا لا تعد ولا تحصى، وسألها:

ـ وماذا فعلت؟

ـ لا شىء، ربنا يحفظ صحتنا فهى الأهم . .

قال لنفسه إنها مجنونة بلا شك، ولذلك فهى بغى. ولكنها كانت الترفيه الوحيد فى حياته الشاقة، ووهبته عزاء لا بأس به. وأحيانا كان يحن إلى الحب وأيامه وسحره الذى يغير مذاق الدنيا، ويتذكر سيدة وسلم السبيل المهجور والصحراء، ولكنه يستسلم فى النهاية لدعابات الدنيا القاسية، ويرضى عن نفسه

المعذبة لاختيارها الطريق العسير المكلل ببركة الله ومجده العالى.
وقالت له قدرية ذات ليلة :

- ألا تحب أن نمضى صباح الجمعة معا فى نزهة؟

فدهش وقال :

- إنى أجيئك كاللص متخفيا فى الظلام . .

- مم تخاف؟

ماذا يقول؟ . . إنها لا تفهم شيئا . وقال معتذرا :

- لا يجوز أن يرانى أحد . .

- هل ترتكب جريمة؟

- الناس . .

فقالت هازئة :

- أنت الثور الذى يحمل الأرض على قرنيه .

إنه ذو دين وخلق وسمعة طيبة يجب المحافظة عليها . وقالت له بإغراء :

- ممكن أن تحتكرنى ليلة كاملة ، يمكن الاتفاق على ذلك . .

فسألها بحذر :

- والثمن؟

ـ خمسون قرشا . . .

وفكر باهتمام . سيهبه ذلك راحة حقيقية ولكن الثمن فادح . إنه فى حاجة إلى الراحة . قال :

ـ فكرة طيبة ولتكن مرة فى الشهر . .

ـ هل تكتفى بمرة واحدة فى الشهر ؟ . .

ـ ربما أجىء غيرها ولكن بالطريقة العادية .

راعترف بأنه لا غنى له عنها . إنها تماثله فى السن ، ولكن يبدو أنها غافلة عن الزمن ، وعن أثره السريع فيها . وهى تعيش بلا حب ولا مجد ، وكأنها تؤاخى الشيطان فى غضبها . وكم غاظه أن تعترف له مرة بأنها اشتركت فى مظاهرة فهتف محتدا :

ـ مظاهرة !

ـ ما لك ! . . نعم مظاهرة . . حتى هذا الدرب أحب الوطن يوما ما . .

وقال إن الجنون منتشر أكثر مما تصور . الاهتمامات السياسية تثيره وتدهشه . وهو يصر على عدم الاكتراث بها . ويؤمن بأن للإنسان طريقا واحدة ، وأن عليه أن يشقها وحيدا مصمما بلا أحزاب ولا مظاهرات ، وأن الإنسان الوحيد هو الخليق بالشعور بربه وبما يطالبه به فى هذه الحياة ، وأن مجده يتحقق

فى تخبطه الواعى بين الخير والشر ، ومقاومة الموت حتى اللحظة الأخيرة .

١٣

واطلع عثمان بيومى ذات يوم على إعلان له شأنه . أعلنت الوزارة عن حاجتها إلى مترجم للغتين الإنجليزية والفرنسية بمكافأة ٣٥ ج . م، وحددت يوما لامتحان مسابقة . اشترك فى المسابقة بلا تردد وبلا تفكير شامل . وأسفرت النتيجة عن اختياره مما زاد ثقته بنفسه واعتزازه بمواهبه . واستدعاه حمزة السويفى إلى مكتبه ـ وكانت الوظيفة الجديدة فى مكتبه ـ وقال له :

ـ أهنئك على نجاحك الذى يقطع بتعدد قدراتك .

فشكره عثمان بأدبه المعهود فقال الرجل :

ـ ولكنها وظيفة ذات مرتب ثابت وسوف تخرج بها من الكادر العام فهل فكرت فى ذلك؟

لم يفطن فى الواقع إلى ذلك فسرعان ما فتر حماسه لمرتبها الضخم نسبيا وقال :

ـ الحق إنى لا أرغب فى الخروج من الكادر العام . .

ـ هذا يعنى أن نعين التالى ف الترتيب؟

فطرأت على ذهنه فكرة طيبة فقال :

ـ ألا يمكن أن أرقى إلى الدرجة السادسة على أن تضاف إلى أعمال الترجمة وبذلك أوفر للميزانية مبلغا لا بأس به؟

فتفكر مدير الإدارة مليا ثم قال :

ـ المسألة تحتاج إلى مراجعة المستخدمين والإدارة القانونية . .

ـ ليكن يا سيدى . .

فضحك حمزة بك وقال :

ـ إنك طموح وحكيم، أرجو أن يكون اقتراحك مقبولا . . وتقررت ترقيته إلى الدرجة السادسة بمرتب قدره خمسة وعشرون جنيها، ورغم تضحيته بعشرة جنيهات إلا أنه فاز بترقية ما كان يبلغها قبل سوات وسنوات، فضلا عن الأهمية التى اختص بها بعمله المزدوج . وتمتع بسعادة قصيرة كالعادة . لم يعرف السعادة إلا خطفا مثل لقاءات الطريق العابرة . وعاد يقيس الطريق الطويلة ويئن تحت وطأة لا نهائيتها . ما جدوى الدرجة السادسة وهو يوشك أن يلج مرحلة جديدة من العمر؟ . وقبله سعفان بسيونى وقال له :

ـ إنك تقفز بقوة مليحة يا ولدى . .

فقال بأسى :

ـ ولكن الأيام أسرع من الخيال . .

ـ هى كذلك كفاك الله شرها . .

فرنا إلى وجهه المتغضن وسأله :

ـ هلا حدثتنى عن طموح شبابك؟

ـ أنا؟ ! ، له الحمد ، كانت رئاسة المحفوظات أبعد من خيالى . .

ـ ألم تحلم بأن تكون المدير العام؟

فأغرق الكهل فى الضحك حتى دمعت عيناه ، ثم قال :

ـ نحن أبناء الشعب لا نطمع فيما يتجاوز رئاسات الأقسام . إنه مخطىء . إنما يصدق كلامه على وظائف الوزراء والوكلاء ، أما وظيفة المدير العام فلا تستعصى على أبناء الشعب ، هى أملهم المنشود والأخير . وبخاصة الأفذاذ منهم الذين يعدون أنفسهم لذلك المجد العظيم . بيد أن الأيام تمر بلا توقف ، وفى غفلة ونعومة ، ولا قيمة لدرجة المدير العام إذا لم يتح لصاحبها البقاء فيها أعواما حتى ينعم بها وينعمهم بالدنيا فى ظلها ويحقق باسمها أجل الخدمات للجهاز المقدس الذى يسمونه الحكومة .

ومتى يكمل نصف دينه؟ . قبل بلوغ الأمل أم بعده؟ . يجب أن يكون أسرة وينجب ذرية وإلا حقت عليه اللعنة . فرما العروس التى ترفع إلى العلا وإما العلا الذى يحظى بالعروس الباهرة . ومن شدة معاناته للعذاب يحن أحيانا للهدوء والخمول ويتطلع إلى الجهاد الشاق الذى يهب الحياة معناها الوحيد ، وعذابها المقدس .

وسمع ذات يوم أن مدير الإدارة حمزة السويفى يشكو ضعف نجله فى اللغات الأجنبية فاقترح عليه أن يساعده. وتردد الرجل قائلا:

ـ الأوفق أن أحضر له مدرسا خاصا حرصا على وقتك.

فقال له بأسلوبه المختار:

ـ لن أغفر لسعادتك هذا القول..

وتردد على بيت المدير فقدم للشاب مساعدة فذة كان لها أثرها فى إنجاحه. وفكر المدير فى تقديم مكافأة له فتراجع كأنما يجفل من نار وقال:

ـ لن أغفر لسعادتك هذا أيضا..

وأصر على موقفه حتى سلم الرجل، فقال له بنبرة الممتن:

ـ لازلت أسير فضلك وتشجيعك..

على أنه شعر فى أعماقه بألم يناسب المبلغ الذى رفضه بشهامته. وثمة خيبة أخرى عاناها فى تردده على بيت المدير، فقد حلم بأن يجد هناك عروسا «مناسبة» ومن يعلم؟.. وحلم أيضا بأن خدماته قد تشفع له عند حمزة بك فيغضى عن وضاعة أصله، ويقبله فى طبقة جديدة تمهد له السبيل إلى التقدم. ولكن الحلم لم يتحقق، ولم يصادفه فى تردده إلا الذكور!. سعفان بسيونى ما كان يهمه أصله فهما من أصل واحد تقريبا ومنبت

متشابه ولكن أى فائدة كان يرجوها من الزواج ن كريمته؟ . لا شىء إلا الذرية والمتاعب والفقر . ولا حب أيضا . فهو لم يحب إلا سيدة، وقد مات قلبه مذ سلاها، ولكن المتطلعين إلى المجد فى طريق الله لا يحفلون بالسعادة . وتمضى الأيام، وستمضى أبدا، بصيفها اللافح وخريفها الحالم وشتائها القاسى وربيعها الفواح، وسيظل عزيمة مثابرة وهمة متصاعدة وقلبا معذبا وأشواقا طاحنة .

١٤

وزارته أم حسنى كعادتها بين الحين والحين . أهدته برطمانا من الليمون المخلل وجلست على الكنبة وهى تنظر إليه باهتمام أثار فضوله . ضربت على ركبتها فجأة وقالت :

ـ تحزننى وحق الحسين وحدتك . .

فابتسم بلا اكتراث فقالت :

ـ أنسيت أنك تتقدم فى العمر؟

ـ كلا طبعا يا أم حسنى . .

ـ وأنه لا يوجد ما هو أغدر من السنين!

ـ صدقت .

ـ أين الذرية لتؤنس وحدتك؟

ـ فى عالم الغيب .

وصمت قليلا حتى قال ضاحكا :

ـ طبع مهنتك يتحرك فيك يا أم حسنى . .

فضحكت وقالت :

ـ اسمع ، عندى شىء ثمين . .

رغم موقفه الحاسم جذبه الحديث بإغراءاته العذبة المجهولة . قال :

ـ دائما عندك شىء ثمين .

فقالت بأمل :

ـ حلوة . . أرملة . . متوسطة العمر . . ولكنها عاقلة ، بنت المرحوم شيخ الحارة . .

ـ هه !

ـ لها بنت وحيدة فى الرابعة عشرة ! .

ـ إذن هما امرأتان لا امرأة واحدة . .

ـ ستذهب البنت إلى بيت عمها . . لا تحمل هما من هذه الناحية . .

ـ عظيم .

- وهى صاحبة ملك!

- حقا؟!

- بيت ف برجوان . . . فى حوشه شجرة توت . .

نظرت إليه ببصرها الضعيف لترى أثر كلامها، فتوهمت رضاه، وقالت:

- ستراها بنفسك . .

وبإرشاد من أم حسنى رآها فى السكة الجديدة. رآها ترتدى معطفا ولكن وضح له أن مشيتها المتثنية الوانية تربت وترعرعت فى الملاءة اللف. مائلة للقصر وبدينة، ذات وجه ريان وشعر أسود.

نادت فيه رغبة بدائية. مثل قدرية. قال إنها أنظف ربما ولكن متاعبها أكثر بما لا يقاس. وشعر برثاء نحو أم حسنى التى تجهله كل الجهل رغم طول المعاشرة. من أين لها أن تفهم معنى مراجع بإدارة الميزانية ومترجم؟. مأساة الآدمية أنها تبدأ من الطين، وأن عليها أن تحتل مكانتها بعد ذلك بين النجوم.

وسألت أم حسنى:

- ما رأيك؟

فأجاب باسما:

- سيدة ممتازة. . ما زلت أستاذة!

ـ هل أكمل ما بدأت؟

فأجاب بهدوء :

ـ كلا .

ـ ألم تقل إنها سيدة ممتازة؟

ـ ولكنها ليست بالزوجة الصالحة لى .

وأثبتت العجوز أنها أعند مما يتصور فجاءته يوما وهى تقول :

ـ من المصادفات السعيدة أن ست سنية جاءت تزورنى . .

فتحركت الرغبة البدائية واستسلم لضعف طارىء فذكرته أم حسنى بقولها قائلة :

ـ جاءت تزورنى . .

فقال بخبث :

ـ لعلها تزورنى أيضا .

فقالت وهى تمضى :

ـ إذا شئت فانزل أنت . .

ولم يتردد فنزل . وغلب الصمت فانفسح المجال لأم حسنى فراحت تتكلم بلا توقف . وتذكر عثمان أنه لم يتكلم كلاما له معنى إلا مع سيدة . واضطر أن يقول :

- شرفتنا . .

فهمست :

- متشكرة . .

- الجو بارد اليوم .

- نعم .

- هل انتهيت من تبيض بيتك؟

فأحنت رأسها بالإيجاب .

حاولت أيضا استدراجه للحديث عن وظيفته ولكنه لزم الصمت . ورغبته تأججت ولكن بلا أمل وتحركت سنية حركة خفيفة تنبىء عن رغبتها فى الذهاب فقام من فوره، سلم وذهب . وبدلا من أن يصعد إلى شقته هبط أسفل السلم مضمرا خطة تتسم بالجرأة . سمع أقداامها وهى تتحرك على السلم نازلة . دهشت لمرآه فقال متظاهرا بالدهشة كذلك :

- فرصة طيبة . .

أوسع لها ولكنه همس وهى تحاذيه :

- تفضلى لشرب فنجان شاى فوق . .

فقالت بعجلة :

- شكرا . .

- تفضلى عندى ما أقوله . .

فقالت باحتجاج :

- كلا .

ومضت مسرعة ما أمكنها ذلك . قال وأطرافه ترتعش بالرغبة إنه أسرع ، كيف تصور أنها يمكن أن تقبل؟ ، ولكنها الرغبة وقلة الصبر والحيلة . وصعد خجلان غاضبا . وقال إنه سيظل مراهقا حتى يستقر فى بيت محترم .

١٥

حالته المالية تتحسن يوما بعد يوم ، استحق علاوة ، وعائده من الترجمة يتزايد ، ولأنه لا ينفق إلا ما تحتمه الضرورة فرصيده فى البريد يرتفع باستمرار . وهمته فى العمل لا تهن ، وعلاقته بمدير الإدارة حميمة كأنها الصداقة ، ويوما قال له :

- أبدى سعادة المدير العام إعجابه بأسلوبك فى الترجمة . .

فاجتاحته وجة فرح حتى أغرقته ، ويقن بأنه لن ينام من الليل ساعة . طبعا سعادته لا يتذكره ، ولكنه بات يعرف الاسم وشخص المترجم المعنوى . قال مدير الإدارة :

- سعادة المدير مترجم كبير ، ترجم كثيرا من الكتب الهامة فهو يقدرك عن بينة !

وتمتم شاكرا ثم قال :

ـ إنما نلت تقدير سعادته بفضل رضاك عنى .

ابتسم المدير وقال بنبرة مبالغة فى الود :

ـ دعيت لإلقاء محاضرة فى جمعية الموظفين، وقد سجلت نقاطها، فما رأيك فى أن تكتبها بأسلوبك الممتاز؟

فقال بحماس :

ـ إنها لسعادة كبرى يا سيدى المدير .

إنه يتمنى لو يكلف كل يوم بعمل كهذا . إن عمله فى الإدارة ـ على ضخامته وتقدير الجميع له ـ لن يكفى وحده . فلا أقل من تقديم الخدمات للرؤساء، وأشعارهم بأهميته وفوائده الشريفة . ولعل ذلك يقلل من جزعه لقلة ما ناله بالقياس إلى ما يطمح إليه . ولكنه عزاء يتزود به فى طريقه الطويل . وفى الليل غشيته كآبة بلا مقدمات وهتف :

ـ يا لى من مجنون، كيف أتصور أننى سأبلغ يوما مرادى؟!

وحسب ما ينقصه من درجات، الخامسةوالرابعة والثالثة والثانية والأولى، قبل أن يتبوأ ذروة المجد! . حسب ذلك وما يقتضيه من سنوات العمر فدار رأسه وداخله شعور عميق بالأسى . وقال إنه يجب أن يحدث شىء كبير، وأن حياته لا يمكن أن تضيع هدرا . وكان على موعد مع سعفان بسيونى فى المقهى

فارتدى ملابسه وغادر الشقة . وجد أم حسنى فى انتظاره أمام شقتها فقالت له :

ـ عندى ضيوف يجب أن تسلم عليهم ، عندى سيدة وأم سيدة . .

دخل وسلم . دخل كالخائف ولكن سرعان ما أدرك أن كل شىء قد انتهى وانقضى . لم يلمس لمحة جفاء أو عتاب واحدة ، ولكنه رأى نظرة محايدة لا تكلف فيها ولا التماعة تذكر فأيقن من سقوط الماضى فى هوة الموت اللانهائية . وضاعف من إحساسه العميق بالزمن ترحيب الأم به ترحيبا صافيا بلا شائبة . رأى الموت يفترس قيمة عزيزة ظن بها الخلود والأبدية فإذا بها ذكرى مجردة تكاد تخرج من نطاق التاريخ نفسه كأنها خروج آدم من جنة الخلد . وها هى سيدة تميل إلى البدانة والبلادة ، ذكرته بقدرية ، فأمعن فى الاضطراب ورأى أعلى ملاءتها قد هبط عن رأسها فطوق منكبيها ، فانطلق الرأس والعنق فى حرية ، وتراجع منديلها المنمنم عن جبهة لامعة ومقدم شعر مفروق ، أما الألق الذى ألف أن يطالعه فى عينيها فقد استقر وانطفأ . تمت المقابلة فى جو محنط وغربة ساخرة ، وعبثا حاول أن يجد فوق الشفتين الغليظتين أى أثر لشفتيه أو أسنانه . مكث ما تقتضيه المجاملة ثم ذهب بقلب يخفق بالابتهالات للمجهول الغامض الفتاك ذى الابتسامة الناعمة القاسية . ذهب إلى رئيسه القديم لقضاء سهرة ودية لمناسبة إحالته على المعاش بعد أيام

معدودات . أمسى الكهل عودا هزيلا ، هلكت آخر شعرة فى رأسه ، لا بسبب الكبر ولكن لمرض فى المعدة ، ولكنه ظل طيبا مستسلما كالعهد به . ووضح أنه يستقبل نهاية خدمته بكآبة وحزن وتشتت فمضى يجامله ويقول :

- أتمنى لك راحة سعيدة مديدة . .

فقال الكهل وهو يضحك ضحكة لا معنى لها :

- لا أدرى كيف تكون الحياة بعيدا عن المحفوظات . .

ثم وهو يتنهد :

- ولا هواية لى ، وهذا هو المزعج حقا . .

- ولكنك محبوب ، الجميع يحبونك . .

- نعم ، ولم تعد لدى واجبات عائلية بلا إنجاز ، ولكننى خائف .

وجعلا يحتسيان الشاى وهو يسترق منه النظر برثاء حتى رجع يقول - الرجل - :

- أذكر يوم التحاقى بالخدمة كأنه الأمس ، إنه يوم لا ينسى مثل ليلة الدخلة ، أذكره بكل تفاصيله ، كيف مر ذلك العمر بهذه السرعة ؟ !

فانقبض قلب عثمان وتمتم :

ـ نعم كأشياء كثيرة . .

فابتسم إليه كأنما يفتتح بالبتسامة عهدا جديدا وسأله :

ـ وكيف حال أعبائك العائلية؟

تذكر إدعاءاته الكاذبة فقال :

ـ ما زال الحمل غير خفيف . .

فرنا إليه بمودة وقال :

ـ تسلمتك غلاما كبيرا ليس إلا ، وها أنت اليوم رجل كامل ،

وعما قليل . . ولكن ما علينا ، المهم ألا يسرقك الزمن ، خذ بالك بكل قوة . .

ـ عظيم ، وهل يجدى ذلك؟

ـ على الأقل لا يجوز أن يفوتك القطار . .

ـ هل تقصد الزواج؟

ـ كل شىء ، دائما أراك فى حال تأهب واستعداد ، لأى شىء؟ وحتى متى؟

ـ ولكن هذه هى طبيعة الحياة . .

فلوح الرجل بيده محتجا وقال :

ـ كلنا يتكلم عن الحياة بثقة كأنما يعرفها حق المعرفة . .

ـ لا مفر من ذلك . .

ـ لولا وجود الله سبحانه وتعالى لكانت لعبة خاسرة لا معنى لها . .

ـ من حسن حظنا أنه موجود وأنه أعلم منا بما يفعل . .

فقال الكهل بعمق :

ـ الحمد لله . .

وصمتا وتكلما ، ثم صمتا وتكلما حتى آن وقت الذهاب . شعر عثمان بأنه لن يراه مرة أخرى . ولم تكن تربطه به إلا زمالة قديمة وإحساس بالواجب ولكنه وجد نحوه ـ فى لحظته ـ أسى غير قليل .

قال الكهل وهو يصافحه :

ـ أتوقع ألا تنسانى؟

فقال بنبرة أحر من قلبه :

ـ معاذ الله . .

فقال الرجل برجاء :

ـ النسيان هو الموت .

ـ مد الله فى عمرك .

ولم تكن لديه نية لزيارته ، ولا هو جاء لتوديعه بدافع

حقيقى من عواطفه ولكن خوفا من أن يتهم بالجحود، ولذلك كربه ضميره وورعه الدينى، ومضى فى طريقه لا يرى شيئا، ورغما عنه تركز تفكيره فى الدرجة الخامسة التى ستخلو بعد أيام.

وكانت مكانته قد تدعمت لدى الإدارة فلم تعترض سبيله عقبة ذات وزن.

ورقى إلى الدرجة الخامسة فى نفس الشهر مع نقله رئيسا للمحفوظات.

١٦

هبة قيمة تتخلق فى الفراغ المشحون بالصبر. الوثبة الجديدة وثبة حقيقية. وامتيازها الخطير أن رئيس المحفوظات يعرض بنفسه الخطابات الهامة على حضرة صاحب السعادة المدير العام ليتلقى توجيهاته وينفذها فى سرية تامة. رضى الله عنه أخيرا ففتح له الباب العالى الموصل إلى الحضرة الإدارية العليا. وهى فرصة سلطانية تطالبه باستغلال جميع ماتمرس به من خبرة وثقافة ولباقة وإخلاص. ها هى الحجرة المترامية كميدان التى يحلم بأن يحكم منها ذات يوم. الحلم الذى يجب أن يتحقق ولو ضحى على مذبحه بجميع القرابين، الحلم المضنون به على غير أهلة من الأكفاء الذين يشترونه بمسرات الدنيا الرخيصة العابرة.

وتفحص الحجرة بعناية بطولها الطويل وعرضها العريض، سقفها الأبيض الأملس، ونجفتها الكرستال، وجدرانها المورقة، مدفأتها الموشاة بالقرميد، بساطها الأرق الذى لم يتخيل إمكان وجود بساط ف طوله وعرضه، وطاولة الاجتماعات ذات الغطآء الأخضر، والمكتب المتصدر بأرجله الغليظة الملتوية وسطحه البلورى، وتحفه الفضية من وراقات ومحابر وأقلام وساعة وسومان ونافضة وعلبة خشبية للسجائر من خان الخليلى.

وتهيأت فرصة لا ستراق النظر إلى المدير السعيد وهو مستقر فوق مقعده الكبير، يطالعه بعينين داكنتين حادتين ووجه حليق، وطربوش غامق الاحمرار، ورائحته الزكية، وشاربه الأسود المتوسط الطول والارتفاع، وهالة الصحة التى تطوقه، وبدانته المتوسطة وإن لم يعرف على وجه الدقة طوله، وتحفظه الراسخ المهيب الذى يجعل من صداقته مطلبا عزيز المنال.

ها هو يقف فى حضرته، فى متناول أنفاسه، فى مجال رائحته الزكية، يكاد يسمع نبضه، ويقرأ أفكاره، ويستلهم رغائبه، وينفذ - قبل البوح - أوامره، ويقرأ المستقبل على ضوء ابتساماته، وقرة عين حلمه الأبدى أن يجلس ذات يوم مكانه.

انحنى بأدب وورع وقال:

- صبحك الله بالسعادة يا صاحب السعادة.

فرفع إليه بصره مغمغما برد التحية، فقال الآخر يقدم نفسه :

ـ عثمان بيومى رئيس المحفوظات .

فقرأ فى ارتفاع حاجبيه المستقيمين ابتسامة لم ترتسم على شفتيه، فقال مستزيدا من تقديم نفسه :

ـ الجديد يا فندم .

ـ والمترجم . أليس كذلك؟

فقال بقلب خافق :

ـ نعم يا صاحب السعادة .

فقال بصوت منخفض :

ـ أسلوبك جيد . .

ـ إنه لشرف عظيم هذا التشجيع . .

ـ هل لديك مراسلات هامة؟

راح يفتح المظاريف برشاقة ويعرض الخطابات ويتلقى في دقة التوجيهات . انحنى مرة أخرى ثم غادر الحجرة ثملا بالأفراح . فكر فى طريق عودته إلى المحفوظات بأن حمزة السويفى ـ يتراجع ـ فى حياته ـ إلى الظل حتى يدركه الظلام الذى ابتلع سعفان بسيونى وأن مستقبله أصبح منذ الساعة بيد حضرة صاحب السعادة بعد الله ذى الجلال . وقال لنفسه :

ـ احذر يا عثمان مغبة السير الرتيب، لا بد من وثبة أو وثبات . . .

وقال أيضا :

ـ سعفان بسيونى قضى نصف مدة خدمته فى الدرجة التى أسلمته إلى المعاش!

وهو يحفظ عن ظهر قلب أن للإدارة وكيلين ولكن الوثبة لن تأتى إلا عن طريق حمزة السويفى، بأن يرقى أو يحال إلى المعاش أو . . يموت!!. وامتعض من نفسه كما يحدث له كثيرا، وابتهل إل الله قائلا :

ـ أسألك اللهم العفو والسماح!

وتساءل :

ـ لماذا خلقنا على هذه الصورة الفاسدة؟

قل أن يرضى عن طبيعته ولكنه يسلم بواقعها، ويؤمن بأن طريقه المقدس تتلاطم على جانبيه أمواج الخير والشر، وأن شيئا لا يمكن أن ينال من قدسيته سوى الضعف والخور والقناعة والاستسلام للمسرات السهلة وأحلام اليقظة .

ـ اغفر لى ذنبى إننى أحب المجد الذى بثثت حبه فى نفسى يا ذا الجلال . .

وساءل نفسه بتصميم :

ـ كيف تقنع حضرة صاحب السعادة بفوائدك؟ . . هذه هى المسألة .

كيف ومتى يتاح له تقديم الخدمات دون انحراف أو خزى؟ . وهو دائن لا مدين كما فعل مع حمزة السويفى؟ ، وفى نطاق الكبرياء والشموخ وإن يكن فى الحدود الرسمية بأدبها المعروف وكلماتها المعسولة؟

ـ إن جهادى شريف أما العواطف والأفكار فهى ملك لله وحده . .

إنه يؤمن بأن الله خلق الإنسان للقوة والمجد ، الحياة قوة ، المحافظة عليها قوة ، الاستمرار فيها قوة ، فردوس الله لا يبلغ إلا بالقوة والنضال .

وحانت فرصة لا بأس بها عندما منح حضرة صاحب السعادة بهجت نور المدير العام نيشان النيل . حبر مقالة فى تهنئته نشرتها له صحيفة يمدها عادة بمترجماته . نوه فيها بالحزم والخلق والدين والإدارة والمثالية ، قال إنه مثال للمدير الوطنى الذى ظن يوما أنه لا يمكن أن يقوم مكان المدير الإنجليزى .

وعندما دخل الحجرة العصماء لعرض البريد ابتسم صاحب السعادة له لأول مرة ، وقال له :

ـ أشكرك يا عثمان أفندى . .

فقال وهو ينحنى :

ـ الشكر لله ياصاحب السعادة . .

ـ أما أسلوبك فمما تغبط عليه .

وآمن بأنه ليس بالنبيذ الجهنمى وحده يسكر الإنسان . ولكن السكر لا يدوم . وكثيرا ما يعقبه خمار . ويخيل إليه أن عجلة الأيام تزيد من سرعتها . غاية ما يذكر أن الزمان لم يكن موجودا . كانت حرة الحسينى مكانا صرفا . لا خطورة للدرجة الخامسة فى حياة رجل يتوسط العمر . رجل يرفع رأسه دواما نحو النجم القطبى ، يحبس نفسه فى حجرته الصغيرة المكتظة بالكتب . خير ما فى حياته من طعام لحمة الرأس أو الكباب فى المواسم السعيدة . ولا يعرف من مسرات الدنيا إلا النبيذ الجهنمى وقدرية الزنجية فى الحجرة العارية . إنه بحاجة إلى دفء إنسانى حقيقى ، إلى عروس وأسرة . لم يعد يحتمل أن يحترق فى الحياة وحيدا . .

ما أحوجه إل أنيس فى هذا الكون المكتظ بملايين الأكوان ! . .

١٧

دعا أم حسنى لزيارته . صنع لها القهوة بيده على موقده الكحولى . لعلها شعرت بأنه يتهيأ للكلام فى قلق عذب . قالت برجاء :

ـ قلبى يحدثنى أنك ناديتنى لأمر، يشهد الله بأننى حلمت أمس . .

فقاطعها :

ـ لا داعى للأحلام يا أم حسنى، أريد عروسا .

فتهلل وجهها وهتفت :

ـ يا ألف نهار أبيض . .

ـ عروس مناسبة . .

ـ ما أكثرهن !

ـ لى شروط يا أم حسنى، افهمينى جيدا . .

ـ عندى البكارى والثيب مطلقات وأرامل، الغنيات ومن هن على باب الكريم . .

فقال بصوت حاسم :

ـ أبعدى فكرك عن حارتنا، عن حينا كله . .

فتساءلت بحيرة :

ـ ما هى أفكارك يا ابنى؟

ـ أريد عروسا من أسرة كريمة . .

ـ عندك المعلم حسونة صاحب المطحن البلدى .

فقاطعها بنفاد صبر :

ـ لا تفكرى فى حينا ، عليك بالأسر الكريمة . .

ـ تقصد . . ؟

ـ الأعيان . . كبار الموظفين . . أصحاب السلطة .

بهتت المرأة كأنما تسمع عن عالم فلكى جديد .

ـ الظاهر أنه لا حول لك فى هذا المجال .

فقالت بيأس :

ـ تفكيرك غريب يا بنى . .

ـ ليكن . .

ـ لا حول لى كما قلت ولكنى أعرف أم زينب الخاطبة بالحلمية .

ـ عليك بها ، وعند التوفيق سأعاملك كما لو كنت صاحبة الفضل الأول . .

وهى تضحك :

ـ أنت بخيل يا سى عثمان .

ـ يا ولية يا ظالمة ، هذا وعد ورحمة أمى . .

ـ ربنا يوفق .

ـ ليس من الضرورى أن تكون بكرا، لتكن أرملة . . مطلقة . . عانسا . . لا يهمنى الجمال ـ ولكن لتكن مقبولة ـ ولا يهمنى الس ولا المال .

هزت المرأة رأسها فى حيرة فقال :

ـ عن الوظيفة والدرجة والشهادة فليرجعوا إلى الوزارة أما . .

وسكت قليلا ثم استطر :

ـ أما الأصل فيمكن القول بأن الأب كان تاجرا مثلا، هل يتحرو عن ذلك بدقة؟

ـ نعم . . رحم الله والديك . .

ـ على أى حال قد يشفع لى شخصى، ولنجرب!

ومضت الأيام مرهقة وهو ينتظر . وكلما رجع إلى أم حسنى أوصته بالصبر . تخيل أسباب التأخير وقلبه يغوص فى الظلام، وراح يتردد على مقام الحسين .

وحدث فى تلك الأيام أن تخلف عن العمل مدير الإدارة حمزة السويفى . وعلم بأنه لزم الفراش لارتفاع شديد فى ضغط الدم . وزاد من الحرج العام أن الإدارة وكانت بصدد إعداد الميزانية الجديدة . وقد عاده فى مرضه، وجلس قرب فراشه طويا . وأبدى من الحزن والإشفاق ما أطلق لسان الرجل بالثناء عليه والدعاء له أن يكفيه الله شر الأيام . وتذكر عثمان فى جلسته أنه لم يزر

سعفان بسيونى، وأنه ترك أخباره تنقطع عنه كأنه رجل. وقال مخاطبا حمزة السويفى:

- ارتح تماما، ولا تترك الفراش حتى تسترد عافيتك بالكامل، ولا تقلق من ناحية العمل فإنى والزملاء فى خدمتك..

فشكره الرجل وتمتم فى قلق:

- مشروع الميزانية!

فقال له بيقين:

- سعيد برذن الله، كلهم تلاميذك ويعرفون من العمل تحت رياستك ما ينبغى عمله..

أما فى الوزارة فقد دار الحديث طويلا حول المريض ومرضه، قيل إنه ربما اضطر حمزة بك إلى التقاعد أو التنحى على الأقل عن مهامه الرئيسية. سمع تلك الأقوال باهتمام فخفق قلبه بسرور خفى تلقاه بسخط وقلق.. كالعادة، ولكنه هيج أحلامه ومطامعه. وإذا بالمدير العام يصدر قرارا بتشكيل لجنة خاصة لإعداد الميزانية جعله مقررها. وتم اختياره عن دلالة لا تخفى على أحد. أجل لم يشك أحد فى كفاءته ولا فى حكمة القرار من هذه الناحية ولكن - قيل - ألم يكن اللائق أن تسند رئاستها إلى وكيل الإدارة محافظة على الشكل؟!. أما هو فكرس كل قواه لإعداد المشروع حتى يبرز للوجود كاملا بلا هفوة واحدة. وتجلت مقدرته

فى توزيع العمل وتنظيمه ومتابعة المعلومات المطلوبة من ردارات الوزارة على حين تعهد هو بالموازنة الختامية وتحرير البيان. واقتضى العمل الاتصال المباشر بحضرة صاحب السعاة والاجتماع به ساعة كل يوم وأحيانا ساعتين، حتى حلت الألفة بينهما مكان الكلفة. وامتد الاجتماع يوما أربع ساعات فأمر له بقهوة، وقدم له سيجارة ولكنه اعتذر شاكرا لكونه غير مدخن. مرت أيام أترعت قلبه بالسعادة والزهور والأمل، ورضى الرجل عن عمله فشعر برضى الله ورقبال الدنيا. وأعد للمشروع مقدمة مثالية حازت إعجاب المدير بصفة خاصة فتربع على قمة النصر المبين.

ورجع حمزة السويفى إلى مكتبه مستردا صحته فى اليوم الأخير لعملة اللجنة، وأعلن عثمان أفراحه فعانقه داعيا له بطول العمر. قال له:

ـ كنا كالضاائعين فالحمد لله على سلامتك.

وتساءل الرجل:

ـ والمشروع؟

ـ أعد، وكتبت المقدمة، هما معروضان الآن على صاحب السعادة، وسوف تطلع عليهما غدا أو بعد غد، ولكن كيف حا الصحة؟

ـ الحمد لله أجروا لى حجامة، ووصفوا لى رجيما دقيقا، والأمر لله من قبل ومن بعد.

ـ ونعم بالله. . .، ما هى إلا سحابة صيف. .

ألف فى خدمته الطويلة انقسام الشخصية والعذابات الأخلاقية. كما ألف الصدمات المتوقعة وغير المتوقعة. كهذه الصدمة مثلا. وجثم الفتور فى أعماق قلبه حتى اليأس. ولذلك فعندما خلت درجة رابعة فى الإدارة القانونية دفعه التوتر إلى الكلام. أول مرة تكلم فيها بلسانه بعد أن اعتاد الكلام بأفعاله وخدماته. وبفضل الجو الذى خلقه العمل بينه وبين صاحب السعادة قال له:

ـ لو تعطف حضرة صاحب السعادة بالموافقة فقد يرى أن أستغل ثقافتى القانونية فى الإدارة القانونية. .

ـ كلا، الإدارة القانونية وقف على أصحاب امتيازات يحسن تجنب التعرض لها. .

اه. . كالعروس التى طال انتظاره لها. وامتعض ولكنه قال بخشوع:

ـ أمرك يا صاحب السعادة!

ومضى نحو الباب ولكن صوت الرجل أدركه قائلا:

ـ اقترحت رفع درجة رئيس المحفوظات إلى الرابعة فى الميزانية الجديدة.

رجع فى خطوة واسعة واحدة وانحنى حتى دكا رأسه يمس طرف المكتب.

١٨

وثبة موفقة لا شك فى ذلك. وإذ جرى الحظ بذلك المعدل فربما بلغ المراد فى اثنى عشر عاما أو خمسة عشر، ويتبقى له عدد لا بأس به من السنين يمارس فيه الإدارة البكرى كصاحب سعادة. أما مهمة أم زينب فقد باءت بفشل أكيد، لم يعد من مجال للشك فى ذلك.

ـ رئيس المحفوظات رفض بلا عناء، مدير الإدارة ربما قبل، أما صاحب السعادة فلا يمكن رفضه ولو بلغ أرذل العمر!

لا حصر للأسباب التى تدعوه للزواج. منه يستمد العون، ويبدد وحشة القلب وعذابات الوحدة، ويرضى ورعه الدينى الذى ير عزوبته إثما. قدرية تلعب دورا ملطفا فى حياته المتوترة ولكنها لا تهيىء رحمة أو حنانا أو مودة إنسانية، فضلا عن مضاعفتها لمشاعر الإثم. العزاء الباقى هو العمل، والثقافة، والادخار، وكلما ضاق بتقشفه قال لنفسه:

ـ هكذا عاش الخلفاء الراشدون!

وذات يوم وهو يعمل فى المحفوظات بوغت بسعفان بسيونى يقف أمامه مهدما مهزولا كأنه شبح يودع الحياة. نهض

للترحيب به خجلان من هول ما أهمله . وأجلسه وهو يقول بحرارة مفتعلة :

ـ أى فرصة سعيدة!

فاستجمع العجوز أنفاسه بجهد جهيد ثم تمتم :

ـ كم أوحشتنا يا رجل!

فهتف بأسف وندم :

ـ اللعنة على العمل ، اللعنة على البيت ومن فيه ، كم أننى آسف يا صديقى العزيز .

قال بصوت شاك :

ـ أنا مريض يا عثمان . .

ـ لا بأس عليك ، بخير إن شاء الله ، هل آمر لك بقهوة؟

ـ لا شىء ألبته ، كل شىء ممنوع . .

ـ ربنا يرد لك الصحة والعافية . .

غاص فى الحرج والضيق ولم يدر كيف يمكن أن تنتهى هذه المقابلة التعيسة . وصمت سعفان قليلا ثم قال بانكسار وذل :

ـ إنى فى مسيس الحاجة إلى ثلاثة جنيهات .

غص بالكلام ثم استدرك :

ـ للعلاج كما ترى :

ارتعد عثـمـان . رأى أن الخطر يوشك أن يدهمـه . بلا رحمة . هتف بطريقة مؤثرة كالمطارد :

ـ يا للفظاعـة ، مـا كنت أتصـور ، مـا كنت أتصـور أن أرد لك طلبا ، فضلا عن هذا الطلب بالذات ، أيسر عليّ أن أسرق من أن أرفض طلبك :

فازدرد الرجل ريقه وقال بيأس :

ـ ولا جنيه واحد؟ !

ـ ألا تصـــدقنى يا أعـــز الناس ؟ ! والله لولا الحــيــاء ، لولا الحياء . . .

يئس الرجل تماما . غرق فى أفكار مجهولة . قام بصعوبة وهو يقول :

ـ إنى مصدقك ، كان الله فى عونك ، ربنا يلطف بنا كلنا . .

دمعت عينا عثمان وهو يصافحه . دمعة حقيقية . لا تمثيل فيها . هى تكثيف لبعض أبخرة الصراع المعذب الناشب فى أعماقه . كاد يلحق به . لكنه لم يتحرك . تركه يذهب . رجع إلى المكتب وهو يناجى نفسه :

ـ يا للعذاب ! . .

وقال :

ـ كان يجب أن نقد من صخر أو حديد لنستطيع تحمل الحياة . .

وقال أيضا :

ـ الطريق طويلة جدا ، عزائى أننى أقدس الحياة ـ نعمة الله ـ ولا أستهين بها !

فى نفس الأسبوع أبلغ بنعى سعفان بسيونى ! . فصدم صدمة عنيفة رغم أن الأمر كان متوقعا .

ومن شدة ألمه صاح بنفسه :

ـ كف عن التألم ، لديك من العذابات ما يكفيك .

وتساءل أيضا :

ـ ما السعادة؟

ثم قال :

ـ سعادتنا الحقيقة أن الله موجود .

ثم بإصرار :

ـ إما أن نحيا وإما أن نموت !

١٩

الوقت كالسيف إن لم تقتله قتلك . بات خبيرا بقتل الوقت ولكن هل نجا حقا من سيفه؟ ! . أمس خلا إليه موظف جديد شاب ليسأله النصح فى مسألة خاصة فمهد لسؤاله بقوله :

ـ معذرة يا سيدى الرئيس، إنما أسألك كوالد أو أخ أكبر!

وقع قوله من مسمعه موقعا غريبا حتى خيل إليه أنه يسخر منه! . كوالد! . حقا كان من الممكن أن يكون له ولد فى سنه. لِم لا؟ . ومع ذلك فإنه لم يهمل قط في قتل الوقت.

ـ أما هذه المرة فهى ناظرة مدرسة!

اهتز بسرور لا خفاء فيه. ولكن الناظرة زوجة صالحة ربما على حين أنه يريد «مصعدا» فما العمل؟

ولم يستطع أن يقاوم حب الاستطلاع فسأل العجوز:

ـ طاعنة فى السن؟ .

ـ عز الأنوثة. . خمس وثلاثون سنة على أكثر تقدير. .

ـ أرملة أم مطلقة؟

ـ عذراء كلما خلقها الله، لم يكن يسمح لهن بالزواج كما تعلم. .

ولم يجد بأسا فى أن يراها. رآها فى السيدة. مقبولة المنظر والمبنى. زثارته كما أثارته سنية من قبل. هكذا رآها وعلم أيضا بأنها رأته.

وقالت له أم حسنى فى مقابلة تالية:

ـ لن تكلفك مليما واحدا. .

فأدرك أنه حاز القبول . وها هى تقترح أن تجهز نفسها وتعد بيتها ولن يطالب إلا بالهين . قالت العجوز :

ـ الدبلة والشبكة وبعض النثريات فهل أقول مبارك؟

ـ صبرك . .

ـ لها شرط واحد أن يكون مؤخر الصداق مائة وخمسين جنيها . . .

كل شيد جميل ويوافق تماما حرصه . وهو مناسب جدا إذا كان يروم إكمال نصف دينه فقط ولكن ماذا عن دنياه؟! . . رغم ذلك غرق فى دوامة التفكير ربما بسبب شعوره بتقدم العمر . بسبب الإيحاءات المجهولة التى انثالت عليه من عالم الغيب . بسبب ما لاح له ساخرا وقاسيا وغادرا . بسبب الورود التى لم يتشممها والأنغام التى تتردد بعيدا عن تناول أذنيه . بسبب التقشف والحرمان . ومع ذلك قال لنفسه :

ـ أى تفكير وأى تردد؟ . هراء فى هراء . . لن أجن على آخر الزمن!

وتمنى لو تنشأ بينهما علاقة ما . غير مقدسة!! . ولكنه يلقى رفضا أشد مما لقى لدى سنية . والقبول ليس سعيدا كما يتبادر إلى الذهن . فهو يقتضيه إعداد شقة وتأثيثها . وانقبض قلبه خوفا . وقال لأم حسنى ببساطة آخر الأمر :

ـ كلا . .

فهتفت العجوز :

ـ أنت تعنى شيئا آخر . .

ـ قلت كلا . .

ـ أنت لغز يا بنى .

فضحك بلا سرور .

ـ ماذا تريد؟ . . ألا تحب جنس النساء؟ .

فضحك مرة أخرى . .

ـ غفر الله لك . .

فقال العجوز :

ـ أنا حزينة يا ابنى . .

فقال لنفسه ، بالحزن يتقدس الإنسان ويعد نفسه للفرح الإلهى . .

٢٠

وجاءت أنسية رمضان وهو فريسة لمشاعر سوداوية طاحنة لا عهد له بها بمثل تلك القوة من قبل . قال إنه تائه فى صحراء قاحلة تتلظى بالنيران ، لم يفز بشىء ذى قيمة ، الأمل طويل والعمر قصير ، والماضى حقير ، رغم العواطف الشخصية الحميمة فهو

حقير، رمزه الحقيقى قبر الصدقة والسجن، والشهيد فى أسرته استشهد فى جانب الظلم والبغى، وهو بلا صديق، انقطعت الصلة تماما بينه وبين أقران صباه، له زملاء يحترمونه ويحسدونه ولكن لا صديق له، الوحيد الذى يجالسه أحيانا، فى صفاء خادم جامع الحسين، والهبة الرومانسية فى حياته الجافة حجرة عارية وبغى نصف زنجية.

ـ ما معنى هذه الحياة؟

وهو كرس نفسه حقا لطريق الله المجيد ولكنه يغوص فى الآثام، ويتلوث ساعة بعد أخرى، ويبدو أنه لا يقاوم الموت بما فيه الكفاية من قوة.

ـ كأنها لعبة خاسرة!

في الأتون المتقد، وهو يتلظى فى جحيمه، وقدت على المحفوظات نسمة لطيفة ذات عبير جديد، جديد على المحفوظات والإدارة العامة بكل معنى الكلمة. كانت أول فتاة تلحق بالإدارة وبالمحفوظات بالذات. سمراء رشيقة متناشقة القسمات بسيطة الملبس. زثار منظرها ارتباكه ودهشته وعطفه وهى تقف أما مكتبه مقدمة نفسها. دعاها للجلوس وهو يلمح رءوس الموظفين تبرز من بين صفوف دواليب شنن. إنهم يتعجبون ولا يصدقون.

ـ أهلا بك..

ـ متشكرة، اسمى أنسية رمضان.

ـ تشرفنا، يبدو أنك صغيرة جدا؟

ـ كلا. ثمانية عشر عاما!

ـ عظيم.. عظيم.. وما شهادتك؟

ـ بكالوريا علمى..

ـ جميل، لِم يا ترى لم تكملى تعليمك؟

وندم على ما فرط من سؤاله. وعاودته ذكريات أول يوم في خدمته فى حجرة حضرة صاحب السعادة المدير العام، أما الفتاة فأجابت بحياء:

ـ ظروف اضطرتنى إلى الاكتفاء بذلك.

ولعن الظروف ولكنه تعزى باشتراكهما التاريخى فى هم مخيف واحد. قال ملاطفا:

ـ إنك تذكريننى بنفسى، ولكن اعلمى يأننى أكملت تعليم وأنا موظف، وأن الأبواب المغلقة خليقة بأن تفتح أمام الهمة العالية..

فغامت عيناها برنوة حزن وقالت:

ـ ولكننا نعايش مجتمعا فظا سيئا..

وجد الأفكار «الثورية» التى يجهلها ويتجاهلها تهدد بمطاردته كالعادة فقال بإصرار:

ـ الاعتماد على النفس خير من مهاجمة المجتمع، الله يأمرنا كأفراد ويحاسبنا كأفراد، وشق طريقك وسط الصخور خير من تسول صدقة من المجتمع، الظاهر أنك تهتمين بالسياسة وبما يسمونه بالأفكار الاجتماعية؟

ـ إنى أومن بذلك . .

ـ هذا يعنى أنك لا تؤمنين بنفسك، أنا لا أعرف إلا عزيمتى وحكمة الله المجهولة!

فابتسمت ولم تعلق بحرف فابتسم أيضا وقال:

ـ سأعهد إليك بالوارد فهو أنسب عمل للموظف الجديد . .

ـ شكرا يا سيدى . .

ـ وسأنتظر منك دائما ما يجعلك أهلا للثقة . .

ـ أرجو أن تجدنى عند حسن ظنك . .

ـ وإذا صادفتك مضايقات من الزملاء فلا تترددى عن إخبارى .

ـ أرجو ألا أحتاج لذلك .

وعهد بها إلى موظف ليمرنها على العمل قائلا باقتضاب:

ـ سر كى الوارد . .

شعر بأن المحفوظات تثب وثبة موفقة نحو الحياة المضيئة، وأنها لن تخلو بعد اليوم مما يحرك القلب والعواطف،

وتبددت بعض الشيء سحب الذكريات السوداوية، وتذكر بدلا من ذلك سيدة وسنية وأيلة ناظرة المدرسة وقدرية فقال لنفسه إن عالم النساء لا نهاية لتنوعه وعذوبته وعذاباته. وتساءل فى حيرة:

ـ أيهما الغاية وأيهما الوسيلة المرأة أم الدرجة؟!

وقال أيضا:

ـ رجال كثيرون عاشوا بلا درجات ولكن من منهم عاش بلا امرأة؟

فى مثل سنه يفكر الإنسان مرتين. قد يضيق بصحبة الكتب ويتأفف من العمل، ويشق عليه الحرمان والتقشف ويطارده الماضى بلا رحمة. فى مثل سنه تشتد الحساسية بالعزلة والوحشة، وبالأنتظار المؤرق لمجد يتعسر. وأمس قال له حمزة السويفى ضاحكا:

ـ ها هى شعرة بيضاء فى رأسك يا عاهل اللوائح المالية! فزع كأنما ضبط متلبسا بجريمة، وقال:

ـ لعل المنظر خدعك يا سيدى المدير.

ـ لتكن المرآة حكما بينى وبينك فانظر جيدا فى البيت..

فتمتم منهزما:

ـ جاءت قبل الأوان.

فقال مدير الإدارة ضاحكا :

ـ أو بعد الأوان ، لقد عرفت الشيب وأنا أصغر منك بعشرة أعوام . .

وضحك المدير طويلا ثم قال :

ـ أمس دار حديث عنك مع بعض الزملاء ، تساءلنا بحيرة كيف تعيش؟ ، قلنا إنك لا تظهر فى طريق أو مقهى أو حفل فأين تقضى وقتك؟ ، وقالوا إنه غير متزوج فلماذا يعيش؟ . ، وقالوا إنه لا يهتم لشى مما يهتم به الناس فماذا يهمه حقا فى الدنيا؟ !

فابتسم فى فتور وقال :

ـ يؤسفنى أننى شغلت بالكم . .

ـ إنك رجل قادر وفاضل ولكنك غامض ، ماذا يهمك فى هذه الدنيا؟

فقال وقلبه يلهث حيال حصار التحقيق :

ـ لا غموض يا حمزة بك ، إنى رجل هوايته الواجب وقرة عينه فى عبادة الله . .

ونعم بالله ، أرجو ألا أكون قد ضايقتك ، المهم أن يرضى الإنسان عن نفسه . .

ولكن أين الرضى أين؟ !

ها هى طليعة الشيب تغزو رأسه، والحياة المجيدة تنقضى كالحياة التافهة، وكم يتبقى له من الزمن ياترى؟!

٢١

وقال له حمزة السويفى يوما فى مناقشة على هامش العمل اليومى:

ـ السعادة هى غاية الإنسان فى هذه الحياة.

فقال عثمان بازدراء باطنى:

ـ لو كان الأمر كذلك لما سمح سبحانه بخروج أبينا من الجنة..

ـ إذن فما الهدف من الحياة فى نظرك؟

فأجاب باعتزاز:

ـ الطريق المقدس..

ـ وما هو الطريق المقدس؟

ـ هو طريق المجد، أو تحقيق الألوهية على الأرض!

فتساءل حمزة بدهشة:

ـ أتطمح حقا إلى سيادة الدنيا؟

ـ ليس ذلك بالدقة، ولكن فى كل موضع يوجد مركز إلهى..

ورمقه الرجل بنظرة غريبة فقال لنفسه ـ نادما ـ إنه يظن بى الجنون . .

وتطايرت شائعة بأن حضرة صاحب السعادة بهجت نور سينقل إلى وزارة أخرى فخفق قلبه خفقة كاد يخلع لها . لقد فعل المستحيل حتى حاز ثقته فمتى يحوز ثقة القادم المجهول؟ . ولكن الشائعة لم تتحقق . ويوما سلمه مجموعة ضخمة من الأوراق قائلا :

ـ هذه أصول ترجمة كتاب عن الخديو إسماعيل ، ترجمتها فى نصف عام!

نظر عثمان إلى الأوراق باهتمام فقال صاحب السعادة :

ـ يهمنى أن تراجع الأسلوب ، أسلوبك فذ حقا . .

تلقى التكليف بسعادة شاملة ، وأكب على العمل بهمة وقوة وعناية فائقة . وفى شهر واحد أعاده إلى صاحب السعادة فى صورة بيانية كاملة . بذلك قدم الخدمة التى تلهف طويلا على تقديمها ، وأصبح رصيده عند صاحب السعادة دائنا ، وحظى ـ عند كل لقاء ـ بابتسامة لا يحظى بها المقربون .

رغم ذلك كله ألهبه الجزع بسياطه ، ورأى الزمن يجرى حتى توارى فى الأفق تاركا إياه وحيدا فى الخلاء مع طموحه المقدس . ومن نفاد الصبر إلى قاإئة فنجان فى التوفيقية ، نصف مصرية

ونصف إفرنجية، تناولت فنجانه وراحت تقرأه وهو يتابعها باهتمام لا يخلو من خجل ويقول لنفسه إنه ما كان يجوز له أن يؤمن بهذه الخرافات.

قالت له:

ـ صحتك ليست على ما يرام . .

الصحة جيدة بلا ريب. ولكن صحته النفسية عليلة. لعلها صدقت على أى حال . .

قالت المرأة:

ـ سيأتيك مال وفير ولكن من خلال متاعب كثيرة.

إنه لا يطلب المال وإن يكن حريصا على كل مليم يجيئه. لعلها تقصد علاوات الترقية المقدرة فى عالم الغيب.

ـ وعدو لك سيذهب فى طريق فلا يعود منه . .

الأعداء كثيرون. يختفون وراء الابتسامات الخلابة والكلمات المعسولة. فى طريقه يوجد وكيل إدارة ثالثة ووكيل آخر ثانية ومدير إدارة أولى. جميعهم أصدقاء ـ أعداء كما تقضى به إرادة الحياة الطاهرة القاسية.

ـ وفى حياتك زيجتان . .

إنه لم يوفق إلى الزواج من واحدة، ولكن هذا هو جزاء من

تدفعه الوساوس إلى الوقوع فى أحضان الخرافات. وتذكر فى طريق عودته أنسية رمضان. فى طريق الصحة والأناقة تتقدم فنعمة الوظيفة سرعان ما تتجلى على الفقراء. هو رئيسها الحنون. تربطهما علاقة إنسانية رقيقة مذبة يتعذر ـ حتى الآن تسميتها. على أى حال لم يعد يتصور المحفوظات بغير وجودها العطر.

ولما رجع إلى حجرته لحقت به أم حسنى وقالت له باهتمام أثار ابتسامته:

ـ ست أصيلة هانم عندى وهى. .

ـ الناظرة؟

ـ نعم، وهى تريد أن تستعين بك فى بعض شئونها.

أدرك فى الحال أن المرأة جاءت لتطوقه بضفيرتها. وانساق إلى المغامرة بغريزته المتطلعة. صافح أصيلة لأول مرة. كانت ترتدى فستانا أزرق يكشف عن نحرها وساعديها، ويبرز مفاتنها. ها هى تعرض عليه نفسها مهما ادعت من أسباب حقيقية أو وهمية. وأثارته كما أثارته سنية وقدرية. إنهن نمط واحد. شهى مثير لا خير فى الزواج منه. وقالت أم حسنى:

ـ سأذهب لأعد لكما القهوة. .

لها تكتيك واحد العجوز الساعية وراء الحلال. وها هما

يجلسان على كنبة واحدة لا يفصلهما إلا وسادة. أمال رأسه ليسوى شاربه مرسلا طرفه إلى ساقها المدمجة المغروسة فى حذاء ذى كعب واطىء أشبه بكعوب أحذية الرجال.

- تشرفنا يا هانم.

- ولى عظيم الشرف.

تشابكت يداها فوق حجرها وقالت بثبات دل على قدرتها على مواجهة المواقف:

- لى استفسار من فضلك.

- أفندم؟.

- أملك قطعة أرض نزعت ملكيتها، أظنك تفهم هذه الشئون؟

- طبعا.

- الطريق المزمع إنشاؤه يغطى أغلبها ولكنه يترك أجزاء لا يمكن الانتفاع بها؟

- أعتقد أن التعويض عن ذلك يراعى عند تقدير الثمن.

- ولكن الإجراءات معقدة كما تعلم!

- لك أن تعتمدى علّى..

بقدر ما شعر بقوة شخصيتها بقدر ما يئس من إغوائها. إنها مستعدة للزواج وما جاءت فى الواقع إلا من أجل ذلك، أما أن

ترضى بعلاقة غير مشروعة معه فيبدو أمرا مستحيلا . ورجعت أم حسنى ، ومضيا يحتسيان القهوة فى صمت تام ، لعلها أصلح زوجة من أكثر من ناحية ولكنها ليست من يريد . وهبطت من السماء صورة أنسية رمضان فجلست بينهما ومحت المرأة محوا . منذ عهد السبيل الأثرى لم يتحرك قلبه كما تحرك لهذه الفتاة الصغيرة . لانت أعصابه المتوترة وصف نفسه وتلقى من الخيال نسمة منعشة أذكت أسمى عواطفه . ولما ذهبت المرأة وجد أم حسنى تنظر إليه باهتمام تريد أن تطمئن على الوظيفة الحيوية التى ترعاها بعملها وإيمانها . باتت العجوز تعبد الزواج والإنجاب والأفراح وتسبح لله فى معجزة الحب التى أبدعها . ولما طال سكونه قالت برجاء :

ـ لعلك غيرت رأيك؟

ـ لماذا؟

ـ ألم تر أنها مثل فلقة القمر؟

ولبث جامدا رافضا ممتنعا عن تناول يدها الحنون . فقالت باستياء :

ـ قالوا فى الأمثال . .

غادر الحجرة قبل أن يسمع المثل . يا للخسارة . إذا لم يسعفه زواج قيم فقد يتبدد سعيه ويهدر أمله فى وسط الطريق . وحياته أصبحت مثار تساولات وانتقادات لا حصر لها فأناس يتساءلون

لِم لم ل يتزوج وينجب ويألف ويؤلف؟، وأناس يتساءلون كيف يَنحصر فى ذاته متجاهلا الأحداث التى تقع من حوله فينفعل بها المواطنون حتى الموت؟. وما هى الهموم التى تشغلهم وتستحوذ على أفذدتهم؟ إنها تتطاير مع أحاديثهم الصاخبة وتعطل أعمالهم. دواما يتحدثون عن الأولاد والزمراض والطعام ونظام الحكم وصراع الطبقات والأحزاب والحكم والأمثال والنكات. إنهم لا يحيون حياة حقيقية ويفرون من واجبعم المقدس. يجفلون من الاشتراك فى السباق الرهيب مع الزمن والمجد والموت وتحقيق كلمة الله المضنون بها على غير أهلها.

٢٢

جاءت أنسية رمضان لعرض ميزان البريد الشهرى. كان صباح يوم من أيام الخريف والجو الرطيب يتسلل إلى حنايا النفس بالأسى العذب. نقل بصره بين الجدول الذى يراجعه وبين أصابع يديها المبسوطة على حافة المكتب. خيل إليه أن شيئا ما يتحرك فى إحدى يديها. يتحرك ويقترب فى زحف رشيق كأنه كلمة سر. يقينا إنها علبة صغيرة دستها بخفة تحت السومان بعد توكدها من رؤيته لها.

ـ ما هذا؟

تساءل بصوت منخفض يتناسب غريزيا مع الحذر الذى اكتنف

الحركة من أولها . رفع السومان قليلا فرأى علبة معدنية مفضضة بحجن نصف الكف . تساءل مرة أخرى :

- ما هذا؟

همست بوجه كالأرجوان :

- هدية بسيطة . .

- هدية؟! . . ولكن ما المناسبة . . ؟

- مناسبة سعيدة . .

بذهول وتشتت من شدة الانفعال :

- حقا؟

- ألا تتذكر؟

قال رغم أنه تذكر :

- ماذا؟

- اليوم عيد ميلادك!

تلقى موجة مترعة بنشوة الفرح . اليوم عيد ميلاده أو تاريخ ميلاده على الأصح . ولكنه يوم يمر كالأيام، ربما تذكره قبل حلوله بأيام أو بعد انقضائه بأيام أو حتى فى ذات اليوم دون أن يكون ذلك أى أثر اللهم إلا مضاعفة الجزع على المستقبل . لم يحتقل به أبدا . لم يعرف ذلك ألتقليد، ولم تعرفه حارته العتيدة . ها هى

أنسية تبشر بتقاليد جديدة، وجديدة أيضا مناورتها الطاهرة فى التوادد وقدرتها البارعة فى فتح أبواب الرحمة.

ـ الحق أنى لا أعنى بتذكره..

ـ شىء غريب..

ـ ولم كلفت خاطرك بذلك؟

ـ تحية متواضعة جدا.

ـ إنى عاجز عن شكرك.

ـ لا داعى لذلك مطلقا.

ـ كم أنك رقيقة مهذبة ولكن كيف عرفت تاريخ ميلدى؟

وضحك ثم قال مستدركا:

ـ آه.. نسيت.. اطلعت على ملف خدمتى الإدارى وفضحت سنى؟!

ـ إنه سن العقل والنضج..

مد لها يده فتصافحا. ضغط على يدها الرقيقة كغشاء من حرير. انثالت عليه الأفكار المعذبة طيلة الوقت. سيرد الهدية بأحسن منها فى عيد ميلادها الذى سيعرفه من ملفها الإدارى أيضا. ورغم سعادتها المشرقة تمنى لو أنها اختارت وسيلة للتحية لا علاقة لها بالنقود، فإنفاق النقود يؤلمه ويخل بميزا حياته.

ولكنه لم يهتم لذلك طويلا. إنه ينزلق فى هاوية، يطير نحو المجهول، مفعم القلب بالمسرة والحنين. وقد ضغط على يدها فتلقت ذلك بابتسامة واعية راضية ومشجعة أيضا. وماذا بعد ذلك؟. هل يتفق وطريقه الأوحد؟. إنه يواجه ما هو أعظم من موقف دقيق عابر مفعم بعبير ساحر، إنه يواجه المجهول والقدر. إنه يطرق الباب الذى يوفقون وراءه الزمن أو يرجعونه خطوة إلى الوراء. وثمة أنباء تردد أن أرجع وإلا هلكت ولكن لم تستجب له أذن ولا قلب.

وقفت فى اليوم التالى قبالته تراسله بنظران تفيض بالطاعة والعذوبة. حرقت الحرارة رأسه وعنقه. انجذبت أصابعه إلى ملامسة أصابعها فوق الدوسيه المبسوط بينهما. أفضى إليها بتوجيهات مدغمة لا معنى لها. وفتشت عيناه المكان بحذر. مال رأسه حتى لثم فاها. تراجع إلى مقعده وهو ينتفض، يرتعش، يحترق، ثملا بخمر الحياة والخوف من المجهول.

٢٣

وكان لقاء قبيل عصر الجمعة. ثم نتيجة لتيار من الاستلام لا يقاوم وبأم فى النجاة آخر الأمر. سماه تدهورا ولكنه كان محفوفا بالسعادة. ولم تكن له خبرة بأماكن اللقاءات السعيدة فاقترحت هى حديقة الأزبكية ولكنه اعترض قائلا إنها مكان

مكشوف تحدق به الأعين من جميع الجهات. أما حديقة الحيوان فهى بعيدة بما فيه الكفاية، مهجورة، خارج العمران، ممتنعة عن الرقابة، يخوض الترام إليها حقولا وخلاء. ومشيا جنبا لجنب يستمعان بحياة «حقيقية» في الساعات السابقة لميعاد الإغلاق. لم يكن رأى الحديقة منذ زارها فى رحلة مدرسية. ولم تكن لديه فكرة عن أصول اللقاء، وما لا يقال. ما يفعل وما لا يفعل. سارا صامتين سعيدين ولكن ثمة إحساسا غير مرح ناوشه، بأن اللقاء حدث شاذ وخطأ، بأنه ما كان ينبغى أن يستسلم. ودفعا لارتباكه ولمشاعره المحبطة أبدى إعجابه بالأشجار والقناطر والجبلاية والجداول والبحيرات وبأنواع شتى الحيوان. ولبث مقتنعا بأنه لم ينطق بكلمة مفيدة بعد، وبأنه يحاول الهرب بعد فوات الأوان. وسارت إلى جانبه تسيل عيناها بنظرة حالمة وظافرة، مرفوعة الرأس، مسددة النهدين، يوحى منظرها بأنها مندفعة فى مجرى من المطالب لا أفق له، وأنها تلتهم فى نفسها أجمل أسرار الحياة. وتلاقت عيناهما فقرأ فى ألقهما البراءة الناصعة والمكر العذب وسيالا من الرغبات المجهولة. قالت محتجة:

ـ حتى وأنا موظفة لا أستطيع أن أخرج إلى مثل هذا اللقاء بسهولة..

فندت عنه نبرة أبوة مضحكة وهو يقول:

ـ لا تغضبى من زجل ذلك يا عزيزتى..

ـ ولكنه غير طبيعى ومهين . .

ـ ترجمة غير دقيقة لعواطف الأمهات والآباء .

ـ لا أعتقد أنك تؤمنين بذلك . .

ـ حقا؟ !

فضحكت فى ثقة كاملة ثم قالت مستدركة :

ـ لو عرفت ماما أننى سألقاك لما ما نعت فيما أعتقد .

فقالت بقلق :

ـ ولكنها لم تعرف؟

فعادها الضحك، وسكتت قليلا حتى جف ريقه تماما، ثم قالت :

ـ اللقاء سر كما اتفقنا .

ـ طبعا يا عزيزتى .

ـ الحق أنى غير مقتنعة . .

واضح جدا أنها تود أن تعمل فى النور . وما يعنيه ذلك واضح أيضا . . ترى هل بات تحت رحمتها؟ . هل ترغمه الظروف على قبول ما ليس فى مخططه؟ . هل تحاصره عناصر هدم تبدد بصفة نهائية حلمه الوحيد المقدس الممتنع؟ . . وتحدى من خلال خواطره المخيفة المجهول فأنذره بالقتل، حتى خجل من أفكاره وهو يلحظ

الغزال الأسمر الذى يثبت متأبطا ذراعه فى فرحة تباركها السحائب السابحة فى سماء الحديقة. وسرعان ما صفت نفسه فدفن وساوسه، وهادن آماله الملحة، ليذوب فى المفاتن المشرقة، ويتذوق السعير المشتعل في جوفه. ووجد أن كوعه يلامس جسدها اللدن، ويتلقى من مجاهيله الفتية إشعاعات من السحر، تفرس المكان حوله بنظرة متلصصة آثمة، ثم لثم خدها، وعنقها، ثم التقت شفتاهما. قال بصوت لم يعرفه:

- أنت فاتنة يا أنسية.

فابتسمت فى حياء وسعادة فقال بحرارة:

- أود أن..

وسكت وهو يتنفس بصوت مسموع فتساءلت:

- هه؟

- كأننى أعرفك منذ الأزل..

فابتسمت فى رضى وإن طالبت عيناها بالمزيد. قال:

- ما أجمل المكان. كل شىء ينطق بجمال صارخ..

- أنت تحب الطبيعة!

وقع القول من أذنه موقعا غريبا وساخرا بقدر بعده عن واقعه. قال:

ـ أنت التى جعلت كل شىء جميلا . .

ـ لا تبالغ ، أتحب أن أصارحك بشىء؟

ـ جدا!

ـ تبدو عادة غير مهتم بشىء .

ـ حقا؟ . . وهل صدقت ما يبدو؟

ـ لا أدرى ، ولكننى شعرت بأنك لغز بقدر ما أنت طيب . .

ـ لا معنى لذلك كله ، الحقيقة الوحيدة المسلم بها هى أنك فاتنة . .

ـ وبعد؟

ـ وما بيننا يجب أن يبقى إلى الأبد مهما يكن المصير!

ـ المصير؟!

ـ ألم يخبرك الملف الإدارى بشىء غير طيب؟

ـ أبدا .

ـ أنت أجمل شىء فى حياتى . .

فقالت بهدوء واستسلام :

ـ وأنت كذلك . .

فلثم خدها من جديد وهو يضغط على راحتها بقوة وهمس :